القاهرة، المدينة، الدولة، المركز في حكايات ألف ليلة وليلة
دراسة اجتماعية وتاريخية وسياسية

أ.د. محمد عبد الرحمن يونس

باحث وقاص وروائي، وأستاذ جامعي يعمل في:
جامعة جين جي الوطنية – تايوان
جامعة ابن رشد – هولندا

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد عبد الرحمن يونس، القاهرة، المدينة، الدولة، المركز في حكايات ألف ليلة وليلة: دراسة اجتماعية وتاريخية وسياسية.- دورية كان التاريخية.- العدد الواحد والعشرون؛ سبتمبر ٢٠١٣. ص ٤٦ – ٦١.

www.kanhistorique.org ISSN: 2090 - 0449

كان التاريخية: رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأداء

مُلَخّص

ما من عمل أدبيّ شعبيّ نال شهرة واسعة في آداب المجتمعات الإنسانيّة أكثر من ألف ليلة وليلة. وكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا العمل في جوانبه المتعدّدة، بوصفه نتاجًا معرفيًّا وحضاريًّا لكثير من الأمم والشعوب. ويمكن القول إنّ حكايات ألف ليلة وليلة تعبّر عن مخزون الذاكرة المعرفيّة الجمعيّة للمجموع الإنسانيّ عبر رحلته التاريخيّة والحضاريّة، هذه الذاكرة التي عايشت تاريخ المجتمعات، وعاداتها وأحوالها، والتحولات الفكريّة والسياسيّة لهذه المجتمعات في تطوّرها الحضاريّ. ويحاول الباحث في هذه الدراسة أن يتبيّن ملامح القاهرة في الليالي، التي لا يذكرها الرّواة تحديدًا، بل يستبدلونها بمدينة مصر التي هي مدينة القاهرة، لأن الرواة عندما يذكرون مدنًا مصرية أخرى فإنهم يحدّدونها، كالإسكندريّة والقليوبيّة ودمياط، وأن أتبيّن ملامحها، وبعضًا من بنيتها المعرفيّة والاجتماعيّة والسياسيّة والتجاريّة، منطلقًا من نصّ الليالي نفسه، ومعتمدًا في آن بعض الخلفيات المرجعية التاريخيّة التي ذكرت هذه المدينة.

مُقَدِّمَة

إنّ أهمّ المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة هي المدن الحضريّة القريبة من البحار والأنهار، والمليئة بالعمران والبساتين، والحمّامات والأسواق والخانات التجاريّة. وحكايات ألف ليلة وليلة هي حكايات المدينة العربيّة الإسلاميّة في أوج نموّها المعرفيّ والحضاريّ في العصر الوسيط، ومثاقفتها وعلاقاتها مع المدن الأخرى، والحضارات الأخرى الهنديّة والفارسيّة والصينيّة، وإن ابتعدت هذه الحكايات عن المدن المزدهرة، فإنّها لا تبتعد عن بنية هذه المدن إلاّ لتنتقل إلى مدن أسطورية وجزر تبدو غاية في الجمال، وكأنها الصورة النديّة لهذه المدن. يقول أحد الرواة واصفًا إحدى هذه الجزر: « فنظروا إلى تلك الجزيرة فرأوا فيها أشجارًا وأنهارًا وثمارًا وبساتين، وفيها من جميع الفواكه والأنهار من تحت تلك الأشجار، وهي كأنّها الجنّة».[1] وعمومًا تبدو المدن التي يصل إليها الرّواة كأنّها جنان الأرض، من حيث التشكيل العمراني، ونشاط الحركة التجاريّة، وجمال النساء اللاتي يصفهنّ الرّواة بالأقمار المشعّة.

غير أنّ المدن التي وصفتها حكايات ألف ليلة وليلة ليست مدنًا مدينية تمامًا، بل تبدو علاقاتها علاقات بدويّة، على الرغم من استهجان الراوي المديني لعلاقات البادية، فحتى بغداد المركزيّة أو البصرة المدينة الحضريّة المهمّة في الليالي لا تخلو تمامًا من علاقات البداوة وقيمها. لقد كان رواة ألف ليلة وليلة وَلِعين بوصف المدن الكبيرة والارتحال إليها، في حين أنّ المدن الصغيرة لم تكن إلاّ محطّات سفر، يرتاح فيها الأبطال والتجّار، أو طرقًا إجبارية يضطرّ السرد للمرور بها للوصول إلى المدينة المركز الحلم، التي تحتضن الأبطال وتعطيهم المال والشهرة والنساء، وكل ما لذّ وطاب. لخراسان وبغداد والبصرة الصدارة في الليالي، وتأتي بعدها من حيث الأهميّة

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

القاهرة ودمشق، هاتان المدينتان المهمّتان اللتان لعبتا أدوارًا سياسيّة وتجاريّة مهمّة في الدولة العربية الإسلاميّة. فدمشق كانت عاصمة للدولة العربية -أيام الأمويّين- التي بسطت هيبتها على جميع بلاد أواسط آسية (في التركستان)، وغربيّ الهند (باكستان اليوم)، وعلى شمال القارة الأفريقية، وعلى شبه جزيرة إيبيرية (إسبانية والبرتغال)، حتى أنّ الزحف العربي اجتاز جبال البرانس إلى فرنسة، ووصل إلى مدينة تور في الشمال الغربي من فرنسة.[٢]

أمّا القاهرة، فقد «مثّلت عاصمة المدنيّة» في ليالي ألف ليلة، إذ كانت « مصر تجذب التجار لا ليثروا من التجارة فيها، ولكن ليروا مظاهر المدنيّة والخصب والثراء".[٣] إلاّ أنّ مركزيّة القاهرة في الليالي أهمّ بكثير من دمشق، على الرّغم من أنّ دمشق في التاريخ كانت عاصمة للخلافة الإسلاميّة، وكانت أكثر مركزية من القاهرة. ولا ندري ما السبب الرئيس الذي جعل الرّواة يحتفون بالقاهرة أكثر من دمشق، إلاّ أنّه يمكن القول: إنّ «الإضافات الأخيرة التي أُضيفت إلى هذا الكتاب [كتاب ألف ليلة وليلة] الضخم حدثت في مصر، والراجح أنّ ذلك كان في أواخر عهد المماليك،[٤] ولعلها وُضِعت في القاهرة (...) وهذا الرأي يمكن استنتاجه (...) من لغة هذا الجزء [الإضافات] فهي تشبه اللغة العربية في عصورها المتأخّرة وتقرب في كثير من الوجوه من اللغة المصرية الدارجة».[٥] ولأنّ هذه الإضافات حدثت في القاهرة، فقد كان نصيب القاهرة في هذه الحكايات أكبر من نصيب دمشق، لأنّه من الطبيعي أن يسجّل الرواة أخبار مدينتهم قبل المدن الأخرى، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ ثمّة إشارات غير قليلة في الليالي إلى أهمية دمشق ومركزيتها أيام الدولة الأمويّة، وهذه الإشارات تجعلها تتفوق على مدن أخرى كثيرة، ومنها: الكوفة، والقدس، والإسكندرية، وحلب، وصنعاء، وفاس، وغيرها من المدن العربية والأجنبيّة الأخرى الواردة في الليالي، والتي لا تتعدّى أن تكون محطات لاستراحات قصيرة جدًا.

ويُلاحظ أنّ حكايات القاهرة لا تنتمي تحديدًا إلى فضاءات القاهرة، بل إنّ الرّواة كانوا يعرفون أهمية بغداد المركز، ولذا فقد بدأوا بسرد الحكاية من القاهرة، ثم ارتحل أبطالهم مع ارتحال السرد إلى بغداد المركز. وهكذا تنتهي بعض حكايات (القاهرة) في بغداد، كحكاية **"علاء الدين أبي الشامات"**، وحكاية **"علي الزيبق المصري"**، وحكاية **"علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد"**. وقد اعتبر الدّارسون أنّ الحكايات المصرية أضافها رواة محترفون إلى كتاب ألف ليلة وليلة، وقد عمل هؤلاء الرّواة على تضخيم حجم الكتاب بقصص عربيّة فيها الكثير من التقاليد الإسلاميّة، والأساطير الفرعونيّة والسير اليهوديّة في آن،[٦] واعتبروا أنّ هذه الحكايات مرّت في ثلاثة أطوار:

(١) الطور الفاطمي: وفيه رُويت حكايات متأثّرة بالطلاسم والسحر والجن.

(٢) الطور الأيوّبي: وفيه رويت قصص البطولة والحروب.

(٣) الطور المملوكي: وتسجّل حكايات هذا الطور أخبار المدن والشطّار.[٧]

ولم تسهم الإضافات الأخيرة إلى كتاب ألف ليلة وليلة، من قبل الرّواة المصريين، في ترجيح كفّة القاهرة على بغداد، لأنّ بغداد تمثّل الكلّ الحضاريّ والمعرفيّ المزدهر للدولة الإسلاميّة، ولأنّها تتربّع على عرش المجد السياسيّ في التوسّع والنفوذ والقوّة، يضاف إلى ذلك « أنّ القصاص المصري إذا تحدّث عن مصر. وهو منها وفيها . تحدّث عمّا يرى، وعبّر عمّا يسمع (...) أمّا إذا تكلم عن بغداد فإنما يتأثّر بعوامل أربعة: يتأثّر بما وُضِع من الأقاصيص الجميلة في بغداد، ويتأثّر بما ملأ الآذان وشغل الأذهان عن عظمة بغداد وأبّهة الخلافة، ويتأثّر بما ركّب الله في طباع الناس من تقديس الماضي، وتعظيم البعيد، ويتأثّر بجهله أحداث التاريخ وتطوّر الأمم، فيأبى وهو في القرن العاشر من الهجرة أن يعترف بموت«الرشيد» ومصرع «بغداد» ونكبة المجد الأثيل».[٨]

ومن البديهي أن نقول؛ إنّ بغداد المركزيّة في الليالي، والأولى في الحضارة العربية الإسلاميّة، في العهد العباسيّ، تتفوّق على دمشق، لا من حيث عدد الحكايات فحسب، بل من مستويات عديدة أخرى، كنموّ الأحداث وتشعبها، وحركة الأبطال، وحركة الوحدات السرديّة منها وإليها، وتشعب الملامح الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة التي امتازت بها بغداد، وتعدّد الفضاءات المكانيّة وأهميّتها في بناء حكايات بغداد، وقدرة بغداد هذه المدينة المنفتحة حضاريًا على استيعاب الأقوام والشعوب ومن جنسيّات مختلفة، وعلى التفاعل معها، واحتضانها.

وقد أسهم انزياح دمشق عن مركزيّتها بعد أفول الدولة الأمويّة، في تقليل أهميتها في حكايات ألف ليلة وليلة عن أهميّة بغداد، وانزياحها عن أن تكون مركزيّة في هذه الحكايات، هذا إذا عرفنا أنّ معظم رواة حكايات الليالي في جزئها العربي، وفي طبقتها البغداديّة تحديدًا، هم من العباسيّين، ومنهم إسحق الموصلي،[٩] ومحمد البصري،[١٠] وإبراهيم بن المهدي عمّ الخليفة المأمون بن هرون الرشيد،[١١] والقاضي أبو حسان الزيادي، أيام المأمون،[١٢] وأبو سعيد بن سالم الباهلي، أيام هرون الرشيد.[١٣] وآخرون، وأنّ رواة آخرين هم من الفرس الأعاجم، مثل علي العجمي الذي يروي لهرون الرشيد.[١٤] مع ملاحظة أنّ هؤلاء الأعاجم كانوا يكرهون النظام الأمويّ، ويتمنّون زواله، لأنّ هذا النظام اعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية، ولا يحقّ لهم ما يحقّ للعرب، وبالتالي طبّق عليهم سياسة التميز العنصريّ، مما جعل «نقمتهم تتعاظم كلّما فكّروا في خضوعهم لسلطانه. و[قد] طما سيل الاستياء، أكثر مما طما، حول مدينة دمشق».[١٥]

وهنا يبدو من غير المستحبّ أن تُروى الحكايات التي تمجّد دمشق بحضور خلفاء لا يحملون لتلك الدولة الأمويّة الآفلة أي مظهر من مظاهر الاحترام، أو لا يعترفون لها بالحقّ في خلافة خلفاء رسول الله (ﷺ)، وقيادة زمام الدولة الإسلاميّة. فـ «على أثر قيام

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الدولة العباسيّة، تسقط مدينة دمشق، وينتهي عصرها الذهبي وتدخل عهد الانحطاط، ذلك أنّ ذِكر الأمويّين كان ثقيل الوطأة على الخلافة الجديدة، فصبّوا [أي العباسيّون] على المدينة غضبهم وحقدهم، وخرّبوا القصور، وانتهكوا حرمة قبور الخلفاء، وهدّموا أسوار المدينة، رغبة منهم في أن يحرموا السكان ما يتحصّنون به إذا ثاروا عليهم. وإذا كان الجامع الأمويّ قد سَلِم من هذا التخريب فالفضل في ذلك يرجع لما كان يتمتع به من احترام في نفوس المسلمين، ولا عجب بعد ذلك، أن تنحطّ دمشق إلى مصافّ المدن الثانويّة، فتنتقل منها دار الخلافة وتغدو قصبة ولاية تعمل فيها عناصر الانحلال لتفكيك عُرى ذلك النظام القديم».[١٦]

أولاً: لمحة تاريخيّة عن القاهرة

بعد الفتح العربي لمصر،[١٧] وضمانًا لسيطرة العرب المسلمين عليها، ونظرًا لأنّ بُعدها عن أرض الجزيرة العربية يجعل من استردادها، إن هي سقطت، أمرًا صعبًا، قرّر الفاتحون الاستقرار فيها، وكان عليهم أن يختاروا عاصمة لها، فقد أراد عمرو بن العاص أن يتّخذ من الإسكندرية قاعدة لحكمه نظرًا لشهرتها وثرائها، لكن الخليفة عمر بن الخطاب رفض أن يترك قوّاته في مدينة تفصلها مياه الفيضان عن أرض الجزيرة العربية في كل عام.[١٨]

ويروي ياقوت الحمويّ[١٩] أنّ عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر مضى إلى الإسكندرية، وأقام عليها ستّة أشهر حتى فتحها الله عليه، عندها: « كتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في سكناها فكتب إليه: لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر، فقال عمرو لأصحابه: أين ننزل؟ فقالوا: نرجع أيّها الأمير إلى فسطاطك فنكون على ماء وصحراء، فقال للناس: نرجع إلى موضع الفسطاط، فرجعوا وجعلوا يقولون: نزلت عن يمين الفسطاط وعن شماله، فسميت البقعة بالفسطاط لذلك». لكنّ المسلمين لم يتّفقوا على اختيار الموقع الفعلي لمدينة الفسطاط، فهل يكون على الضفّة الشرقية أو الغربية؟ فقد رأى الأتقياء في جيش عمرو بن العاص أن يجعلوها على الضفّة الغربية تيمّنًا بما يروى عن رسول الله (ﷺ): «أن الجيزة بها روضة من رياض الجنة»، لكن عمرو بن العاص كان عمليّ التفكير، وانطلاقًا من رؤيته العسكريّة فقد فضّل الضفّة الشرقية حتى يكون الخليفة على اتّصال قوي بجيشه، وهكذا وقع الاختيار على الضفّة الشرقية في الأرض المجاورة لحصن بابليون، المهيمن على الطرق المؤدّية إلى الصعيد.[٢٠]

وحول موقع مدينة الفسطاط، يروي الطبري[٢١] قصة ربما تكون حقيقية، وربما تخيّليّة، لكنها في بنيتها العامة تلتقي مع قصص الأساطير العربية، التي كانت تجد صدىً واسعًا لدى عامّة الناس في العصر الجاهلي، وحتى في العصور الإسلاميّة اللاحقة له، فعندما عزم عمرو بن العاص السفر إلى الإسكندرية لفتحها، أمر «بفسطاطه أن يُقوَّض فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه. فقال: لقد تحرَّمت بجوارنا أقِرّوا الفسطاط حتى تنفُق وتطير فراخها، فأُقِرَّ فسطاطه، ووكّل به من يحفظه». وعندما رجع عمرو من الإسكندرية بنى المدينة مكان الخيمة التي بنت اليمامة عشّها عليها.

وتشير الدراسات إلى أنّ الفسطاط قد امتدّت «في القرن الثاني الهجري وأنشئت كذلك مدينة «العسكر»، وكان امتدادها نحو الشمال، حيث أنشأ أحمد بن طولون مدينة «القطائع»، التي انتهت عند ميدان المنشيّة. وهذه هي المدن الثلاث التي أنشأها العرب في مصر قبل إنشاء "القاهرة".[٢٢]

أسّس القاهرة القائد جوهر الصقلّي في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩ م، في عهد الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله.[٢٣] وأحاطها بالأسوار والأبواب المحصّنة كباب الفتوح وباب زويلة، وأنشأ فيها شارعًا رئيسًا عظيمًا سُمّي فيما بعد بشارع المعزّ لدين الله الفاطمي، وقد أُنشِئ هذا الشارع بطريقة فنيّة متعرّجة، بحيث يهدف إلى حماية روّاده من أشعة الشمس في صيف القاهرة، وقد كان هذا الشارع المركزي مصبًا للأسواق الفرعية، والمساجد، والحمّامات، والخانات، والأسبلة، والمدارس.[٢٤] ويبدو أنّ بناء القاهرة كان نتيجة حتمية لاتساع حاجات الدولة الفاطمية إلى مدينة كبيرة تستوعب الجيوش التي قدمت معها، وتراعي زيادة عدد السكان الجدد، وهو في المحصّلة النهائيّة نتيجة طبيعية أفرزها التطوّر العمراني في المدن الإسلاميّة.

عُرِفت القاهرة في البداية باسم « المنصورية »، تبرّكًا باسم مدينة «المنصورية» التي «أنشأها خارج القيروان، المنصور بالله والد المعزّ، ولكن الخليفة [المعزّ لدين الله] الذي جاء ليستقر في مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م، غيّر اسمها إلى «القاهرة».[٢٥] وتشير إحدى الدراسات إلى أنّ هنالك مجموعة من الدوافع دفعت القائد جوهر الصقلّي لبناء هذه المدينة، ومنها:

١ . الدوافع الجغرافية: قربها من مدينة الفسطاط واتصالها بها.

٢ . الدوافع الاستراتيجية: كون القاهرة أول مدينة يصل إليها المسافر بعد خروجه من الشام.

٣ . الدوافع العسكرية: حينما بنى جوهر الصقلّي مدينة القاهرة أراد أن يكون و أصحابه وأجناده في منأى عن العامة.

٤ ـ الدوافع الاقتصاديّة: اختيار موقع للمدينة أقرب إلى نهر النيل، بحيث يكون النيل طريق نقل للبضائع والركاب، إذ تصعد فيه المراكب إلى الصعيد، وتنحدر إلى الإسكندرية.[٢٦]

إلاّ أنّ هذا الموقع الذي رآه جوهر الصقلّي موقعًا متميّزًا، لم يعجب المعزّ لدين الله لأنه رآه بلا ساحل. عندها نبّه قائده جوهر الصقلّي، قائلاً: «فاتك بناء القاهرة على النيل عند المقسّ (ميدان المحطّة)، فهلا كنت بنيتها على الجرف...؟ (منطقة الرصد)» .[٢٧] لكنّ الدراسات الجغرافية المعاصرة فيما بعد أثبتت أنّ جوهر الصقلّي «كان موفّقًا في اختيار موقع القاهرة، حيث يضيق عنده مجرى النيل، وحيث تتخلل الجزر المكان الذي تشرف عليه القاهرة، والتي هي أشبه بممرّ طبيعي يسهل للناس الانتقال من ضفّة إلى أخرى ويهون عليهم أمر ذلك كثيرًا».[٢٨]

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وإذا كان القائد جوهر الصقلّي قد فاته ما قاله المعزّ لدين الله، انطلاقًا من رؤيته العسكرية لموقع القاهرة الذي ظنّ أنّه يحقق موقعًا مهمًّا لجنوده، وذلك من خلال الميدان الفسيح الذي كانت تُقام فيه حفلات استعراض الجيش والذي يتّسع لعشرة آلاف ما بين فارس وراجل،[٢٩] فإنّ «الخلفاء الفاطميين لم تفتهم النظرة إلى مواطن الجمال في أطراف القاهرة والفسطاط والجيزة، فانتقلوا بها إلى شاطئ النيل وحافتي الخليج، وشبرا حيث كانت الخضرة والماء، فأنشئوا [كذا] المناظر والحدائق وكانوا يقضون فيها أوقاتًا سعيدة».[٣٠]

وقد قُسّمت المدينة لأن تتوزّع فيها الطبقات بحسب موقعها في الهرم السلطوي، بحيث يكون قصر الخليفة بعيدًا عن قصور الطبقات الشعبية، وهذا ما يُلاحظ في معظم المدن الإسلاميّة التي شكّلت مدنًا مركزية وعواصم للدولة الإسلاميّة، فالشارع المركزي - المشار إليه سابقًا- كان طوال العصر الفاطمي مقصورًا « على سكن الخليفة ورجاله (...) وقصر السلطان هو مركز القاهرة، ويحيط به قصور الأمراء والقادة، وفي الدائرة الأوسع التجّار والعامة. وعند هوامش القاهرة يعيش المزارعون».[٣١] وقد احتلّت مدينة القاهرة مكانة مهمّة بين مدن مصر. ولم تنازعها مكانتها هذه في تاريخ مصر سوى مدينتي طيبة والإسكندرية. والقاهرة أقدم مدينة في العالم باعتبارها وريثة « منف » القديمة.[٣٢]

ومنذ القرن الحادي عشر الميلادي، أشار الشعراء الجوّالة إلى القاهرة باسم بابليون Babilone، وقد انتقلت هذه التسمية للاستعمال العام في أوربا، إلّا أنّ المؤلفين الأكثر اطلاعًا بجغرافية المدن وتاريخها رأوا أنه من الضروري التمييز بين بابليون التوراتية،[٣٣] وبين عاصمة مصر، التي ميّزوا فيها بين مدينتين: هما بابليون التي تحمل اليوم اسم مصر العتيقة، وبين القاهرة الحقيقية التي أسّسها الفاطميون في القرن العاشر الميلادي[٣٤].

وتُعدّ القاهرة من أهم المدن الإسلاميّة التي تمتاز « بثقل ثقافي وحضاريّ وتاريخيّ، حيث تتجمّع فيها مختلف المظاهر العمرانية والتراثية عبر مراحل تاريخها، وذلك منذ تأسيسها سنة ٩٦٩م شمالي الفسطاط».[٣٥] ويرى أحد علماء الجغرافية العرب أنه لو حُصِرت العواصم المخضرمة العربية في الدنيا، فلعلّ القاهرة هي أهم المدن جميعًا.[٣٦] وموقع القاهرة هو موقع فريد في مصر وخارجها، فهو موضع التقاء الدلتا بالصعيد في عقدة الوادي.[٣٧] ويرى أحد الدّارسين أنّ المميّزات المادية لموقع القاهرة جذب العديد من السكان في حين أن بواعث دينية أخرى أسهمت في جلبهم.[٣٨] إذ إنّ الأقاصيص الدينية نسجت هالة قدسية حول هذا الموقع، فقد ساد بين الناس «أنّ الدعوات التي تُؤدّى على جبل المقطّم مجابة، وأنّ الله قد وعد بأن يجعل من السفح [سفح المقطّم] روضة من رياض الجنّة، وأنّ هذا السفح يتمتع بخاصيّة خارقة للطبيعة مباركة، فالجثث التي تُدفن فيها لا تبلى لوقت طويل (...) وقد أُعتقد أنّ من يُدفن في نهاية الطرف الجنوبي يُبعث أيام الأربعاء والخميس والجمعة المقدّسين..».[٣٩]

من الملاحظ أنّ المصادر القديمة، والتي جاءت بعد تأسيس القاهرة، لم تذكر القاهرة تحديدًا، بل ظلّت تطلق عليها اسم الفسطاط تارة ومصر تارة أخرى، فياقوت الحمويّ[٤٠] المتوفَّى ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، بالرغم من استفاضته بالحديث عن الفسطاط ومصر بكثير من التفاصيل، فإنه لا يذكر القاهرة إلاّ مرّة واحدة قائلاً: « ثم اتّفق في سنة ٥٦٤ [هـ] نزول الإفرنج على القاهرة فأضرمت النار في مصر لئلا يملكها العدو». ويبدو أنّ هذه المصادر ظلّت تعدّ القاهرة هي مصر والفسطاط، حيث يغلب الاسم القديم للبلد الكل (مصر) على الجزء المحدث (القاهرة).[٤١] وقد ظلّ اسم مصر أو الفسطاط غالبًا أيضًا على الاسم الجديد (القاهرة) في حكايات ألف ليلة وليلة.

وتبقى القاهرة في المحصّلة النهائية المدينة الجديدة المتطوّرة التي احتوت، وضمّت إليها بعد التجديد في بنائها، المدن الصغيرة السابقة لها المسمّاة بـ: بابليون Babilone والقطائع والعسكر والفسطاط، والتي يمكن عدّها أحياءً كبيرة مجاورة للقاهرة، وفي ما بعد ذابت ملامحها في القاهرة تمامًا، وبقي الملمح الكل الجامع لها ملمح القاهرة المزدهرة عمرانيًا وحضاريًا، المليئة بالمساجد والشوارع، كما يروي ياقوت الحمويّ[٤٢] عن القاضي أبي عبد الله القضاعي، أنّه « كان في مصر من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد وثمانية آلاف شارع مسلوك وألف ومائة وسبعون حمّامًا».

وفي المصادر التاريخيّة تبدو مصر بلدًا مباركًا وطيبًا، وعمرانها أبعد العمران عن الخراب، إذ يروي ياقوت الحمويّ[٤٣] عن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص أنّه قال عن مصر: « وهي اليوم أطيب الأرضين ترابًا وأبعدها خرابًا لن تُزال فيها بركة ما دام في الأرض إنسان (...) وقالوا: مثلّت الأرض على صورة طائر، فالبصرة ومصر الجناحان فإذا خربتا خربت الدنيا» .

إنّ القاهرة التاريخيّة سليلة الحضارات القديمة الفرعونية والرومانية هي «مدينة تجمع بين القديم الوسيط والحديث بل إنّها مدينة تجمع التاريخ كله »[٤٤]. وقد تحدّث الرحالة عن هذه المدينة بإعجاب ودهشة، يصلان حد التبجيل، فها هو يعقوب الفيروني J. de Véroné، يأتي من البندقية وعندما يصل إلى القاهرة في آخر أيلول ١٣٣٥م، يصفها قائلاً[٤٥]: « وصلت إلى القاهرة، المدينة التي تحوي الكثير من العجائب التي تستحّق الذكر، لأنها زعيمة كل مصر وفلسطين والأرض المقدّسة، وكل بلاد الآشور حتى أرمينية (...) والهواء فيها عذب وخال من أي شكل من أشكال الوخامة، والسكان أغنياء جداً بفضل تجارة الهند» . ويصفها رحالة آخر بأنها «بندقية الشرق»[٤٦]. ويبدي أحد الرحالة المعاصرين إعجابه الشديد بها، فيصفها بأنها « المدينة، التي نطق فيها السيد المسيح أول كلماته»[٤٧]. و«هي قطب العالم العربي، خاصة في مجال الثقافة الشعبية»[٤٨]. وهي « الخليّة العامرة بالحياة والتي لا مثيل لها»[٤٩]، وهي

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

المدينة الآمنة التي توفّر ملاذًا أمينًا لّلاجئين إليها منذ أيام الملك هيرود، حتى المجاعة على الساحل الأفريقي، إلى الأيام المعاصرة.[٥٠]

وبعد انهيار بغداد العباسيّة وأفول عزّها، وسقوط الخلافة العباسيّة فيها سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ستصبح القاهرة مدينة مركزية مزدهرة بالنسبة للدولة الإسلاميّة، مثلها مثل دمشق أيام الخلافة الأمويّة، ومثل بغداد أيام الخلافة العباسيّة. ونظرًا للدور الجديد الذي ستلعبه مصر، وللمركزية السياسيّة التي تحتلها في ظلّ دولة المماليك، فإنّ القاهرة ستصبح في ظلّ هذه الدولة: « القلب من الجسم بعد أن تكوّنت للعروبة معالم واضحة فامتدّت حدود هذه الدولة من اليمن جنوبًا حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً، وعلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط من خليج الإسكندرية حتى بلاد برقة، وعلى ضفاف النيل حتى أعالي النوبة».[٥١]

هذه هي بعض ملامح القاهرة عبر التاريخ، كما وصفتها المصادر والمراجع. فما هي أهم ملامحها الإنسانية والاجتماعيّة في حكايات ألف ليلة وليلة؟. هذا ما سنحاول الإجابة عنه من خلال الصفحات الآتية.

ثانيًا: القاهرة في ألف ليلة وليلة

يتّفق الدارسون على أنّ كتاب ألف ليلة وليلة يتكون من طبقات متعددة، وإحدى هذه الطبقات كُتبت في بغداد وأخرى كتبت في مصر.[٥٢] والطبقة المصرية أُضِيفت إلى الكتاب في زمن متأخر،[٥٣] فـ «الأقاصيص الهيّنة الجيدة السبك التي تمثّل حياة الطبقة الوسطى وتقوم على مشكلة من مشكلات الحب ويكون حلّها على يد الخليفة هي من الطبقة البغدادية، وأمّا حكايات الصعاليك وحكايات الجن -وهذه في الغالب ضعيفة الأسلوب- فهي من طبقة مصرية متأخّرة».[٥٤] إنّ ما يميّز حكايات ألف ليلة وليلة في طبقتها المصرية كما يرى أحد الدارسين، وجود عنصر المغامرات في بنية أحداثها «التي تعتمد المكر والحيلة من جانب والمنافسة السياسيّة الحادة من جانب آخر»[٥٥]. على أن الدارس، مهما كان دقيقًا، لا يستطيع أن يصنّف خصائص معينة ودقيقة للطبقة المصرية، تميّزها عن البغدادية أو الهندية أو الفارسية، لأنّ معظم الحكايات تلتقي في معظم بنياتها التركيبية، التي تتشابه من حيث الحيلة والمكر والقتل والدهاء والجواري الجميلات، ورجال السلطة السفّاحون، والملوك والأمراء الذين يتطاحنون حروبًا مدمّرة في تنافساتهم السياسيّة. فالطور البغدادي يتداخل مع الطور القاهري، ويتزامن معه، والسارد الذي يكون في بغداد سرعان ما ينتقل إلى القاهرة، وبالعكس، كما في حكاية «**علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة**»، والذي يكون في القاهرة سرعان ما ينتقل إلى بغداد، بوحداته السرديّة كما في حكاية « **علاء الدين أبي الشامات** »، وقد « كان القصاص المصري يعتمد على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة، والرّوايات القديمة الصحيحة والمدخولة، ثم يضيف إلى ذلك ما تُنوقل في مصر وما تجمّع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارين، فقد كان هؤلاء بعد عودتهم من البلدان النازحة يدوّنون ما رأوا من الأعاجيب» [٥٦].

ويمكن بشيء من التقريب القول: إنّ الطريقة التي يمكنها أن تلقي الضوء لمعرفة الطور القاهري، ولو بشكل نسبي، هي متابعة السارد وهو يحدد الأماكن الواقعية التي يصل إليها الأبطال، أو يسمّي بعض أحيائها، أو يحدد أسماء حكّامها الحقيقيين في الأزمنة التي حكموا فيها، وسيساعدنا أيضًا، في تحديد هذه الحكايات لغة الحكاية التي تنهل في تركيبتها من لهجة المدينة، لأنّ هذه اللهجة من شأنها «أن تقودنا إلى أصل النص »[٥٧]، فالحكايات التي تذكر المدن المصرية تحتفظ بلهجة عاميّة، لا تزال معروفة في مصر حتى الآن. على أنّ ذكر الشخصية المقرونة بمكان معين، أو بزمان يدور الأبطال في فضائه التاريخيّ، ليس دليلاً كافيًا لمعرفة أصل الحكاية، أو الطبقة التي تنتمي إليها، فعلى سبيل المثال نجد أن الحكاية التي « تُقال عن الرشيد قد تكون أُلّفت بعده بقرون، أو حتى أُلِّفت قبله بقرون وأُضيف إليها اسمه إضافة مفتعلة عندما أراد القاصّ أن ينزل هذه القصّة القديمة إلى جوّ المسلمين فسمّى الملك القديم هارون الرشيد، ولم يجد من سامعيه تحرّجًا ولم يقدّر أنّ قومًا سيتساءلون ويخضعون قصصه، الذي ألفّه ليؤدّي غرضًا آخر، لقوانين العقل والواقع والحق»[٥٨].

وفي دراستي لملامح القاهرة في حكايات ألف ليلة وليلة التي وصفتها، سأعتمد بالدرجة الأولى، في تحديد حكايات الطبقة المصرية، المسمّيات المكانية للمدن المصرية وأحيائها، من دون أن أجدني مضطرًا للخوض في الآراء الكثيرة المتشعّبة والمتضاربة التي تؤكّد أو تنفي أو ترجّح أنّ هذه الحكاية أو تلك قاهرية أو بغدادية، أو هندية أو فارسية، لأنّ دراستي ستنطلق من الفضاء المكاني، وأهمّ ملامحه، وعلاقات شخوصه، ودور هؤلاء الشخوص في تحديد سمات المكان وهم يصفونه، أو يتعايشون معه. وفي البداية تجدر الإشارة إلى؛ أنّ الرّواة لا يذكرون القاهرة في جميع الحكايات إلاّ مرّتين[٥٩]، وهم يستعيضون عنها باسم مصر، أو مصر القديمة، وهم يعنون بها القاهرة، لأنهم عندما يذكرون مصر فإنّهم يذكرون أحياء حقيقية لا تزال معروفة حتى الآن بالأسماء نفسها في القاهرة المعاصرة، ومن هذه الأحياء:

القليوبيّة[٦٠]، وخان مسرور، وباب زويلة، والحبّانيّة، وبين القصرين[٦١]، وحي البنداقيّين، وحارة اليمانيّة والجودريّة[٦٢]، وميدان الفيل[٦٣]، وباب النصر، وحي العادليّة[٦٤].

أمّا حكايات القاهرة في الليالي فهي: حكاية « الوزير نور الدين مع أخيه شمس الدين»، وهي داخلة ضمن حكاية « هرون الرشيد مع الصياد» [٦٥]، وتجري حوادثها في مصر والبصرة، وحكاية «النصراني لملك الصين »، وهي ضمن حكاية « الأحدب وملك الصين» [٦٦]، وحكاية «علاء الدين أبي الشامات» [٦٧]، وهي مصرية وبغدادية في آن، وحكاية «وردان الجزّار» [٦٨]، وهي في زمن الحاكم بأمر الله، وحكاية « الملك الناصر والولاة الثلاثة» [٦٩]، وحكاية «علاء

دورية إلكترونية .محكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

الدين والي قوص مع أحد اللصوص» [٧٠]، وحكاية « الرجل البغدادي الذي سافر إلى مصر لأجل ما رآه في الحلم » [٧١]، وفيها يرتحل السرد من بغداد إلى القاهرة، ثم يعود إلى بغداد، وحكاية «الحاكم بأمر الله مع الرجل الكريم » [٧٢]، وحكاية « علي المصري وزواجه ببنت ملك بغداد » [٧٣]، وكما يظهر من عنوان الحكاية، فإنّ الشخصية المصرية فيها ترتحل من القاهرة لتستقرّ ببغداد، وحكاية « جودر ابن التاجر عمر وأخويه » [٧٤]، وحكاية «علي الزيبق المصري ودليلة المحتالة» [٧٥]، وحوادثها في القاهرة وبغداد، وحكاية « سيف الملوك وبديعة الجمال » [٧٦]، وهي داخلة ضمن حكاية « التاجر حسن مع الملك محمد بن سبائك »، وحكاية « معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة » [٧٧]، وحكاية « الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي » [٧٨].

إذا كانت بغداد في ألف ليلة وليلة قد نالت حظوة كبيرة عند الرّواة، باعتبارها مدينة مركزيّة للسياسة والسطوة والعلم والمعرفة والترف والرفاهية، فإنّ حظّ القاهرة بالرّغم من حكاياتها الكثيرة أقلّ من حظّ بغداد، إذ يصورّها الرّواة على أنّها مدينة « للاحتيال والشطارة والشعوذة والجهل [٧٩]، ويمكن القول إنها تحتّل المرتبة الثالثة بين فضاءات المدن العربية في ألف ليلة وليلة، بعد بغداد والبصرة، لكنّ هذه المدينة بالرّغم من أنها فضاء للاحتيال بامتياز، فإنّ عليها قسمات وملامح جماليّة غير قليلة، فهي قريبة إلى القلب وعزيزة على النفس، وفضاء لمتعة العين والقلب: « فليس على وجه الأرض أحسن منها » [٨٠]. ومن ملامحها: أنّ الحياة فيها طيّبة، وأنها تجمع كل ما تطمح إليه ملذّات النفس البشريّة، التقيّة والمارقة، وسكانها محلّ صدق، كما يذكر أحد الشعراء[٨١]:

أأرحل من مصر وطيب نعيمها ... وأي مكان بعدها لي شائق؟
بلاد تشوق العين و القلب بهجة ... وتجمع ما يهوى تقي ومارق
وإخوان صدق يجمع الفضل شملهم ... مجالسهم مما حووه حدائق
أسكان مصر إن قضى الله بالنوى ... فثمّ عهود بيننا ومواثق.

ومن صفاتها، أنها « مدينة مصر المحروسة » [٨٢]، و« مدينة مصر السعيدة » [٨٣]، والمدينة التي يقصدها الراوي هنا، هي القاهرة تحديدًا. والقاهرة في بعض حكايات ألف ليلة وليلة مدينة تجاريّة مزدهرة، وتجّارها أثرياء مترفون حتى التخمة: « كان بمدينة مصر رجل تاجر، وكان عنده شيء كثير من مال ونقود وجواهر ومعادن وأملاك لا تُحصى».[٨٤] لكنّ الرّاوي العاشق لبغداد ذات الشهرة التجاريّة التي لا تُضاهى، لا يستطيع أن يتخلّص من سحرها وجاذبيتها، وهو يصف ثراء التّجار في القاهرة، بل يؤكّد أنهم يعودون بجذورهم إلى أصول بغدادية. فالتاجر المصري الغني صاحب الأموال التي لا تحصى «كان اسمه حسنًا الجوهري البغدادي».[٨٥]

ومن مظاهر ثراء التّجار في مصر وأبّهتهم، ما نقرأه عن شمس الدين والد علاء الدين أبي الشامات، فهو « صاحب خدم وحشم وعبيد وجوار ومماليك ومال كثير».[٨٦] وما يُلاحظ على أولاد هؤلاء التّجار أنّ فضاء القاهرة بكلّ شساعته وجمال نسائه لا يغريهم بدوام العيش فيه، فابن التاجر حسن البغدادي، المدعو بـ «علي المصري»، وعلاء الدين أبو الشامات ابن التاجر شمس الدين، يرفضان العيش في القاهرة بالرغم من ثرائها الأسطوري، ويرتحلان إلى بغداد المركز ليستقرّا هناك بقيّة حياتهما. وهذا الارتحال عائد إلى أضواء الشهرة والثراء التي عاشتها بغداد المركزيّة.

ويقدّم الرّاوي تجّار مصر في صورة مليئة بالكرم، وبخاصة في علاقاتهم المتميّزة مع رجال السلطة. فها هو أحد تجّار مصر الأثرياء الذي يملك مائة جارية،[٨٧] يكرم الخليفة الحاكم بأمر الله وجنوده، عندما ينزلون في بستانه، ويطعمهم جميعًا مما أرسلته إليه جواريه المائة من طعام، إذ أخرج الرجل: « مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق من الفاكهة، ومائة جام ملآن حلوى ومائة زبديّة ملأى بالشرابات السكريّة»[٨٨]، ثم قدّمها للخليفة وحرّاسه. ويقول الرّاوي:[٨٩] إنّ الخليفة الحاكم بأمر الله سجد « شكرًا لله تعالى وقال: الحمد لله الذي جعل في رعايانا من وسّع الله عليه حتى يطعم الخليفة وعسكره من غير استعداد لهم، من فاضل طعامه» .

وصعايدة مصر هم الآخرون كرماء في ألف ليلة وليلة، ويذكر الرّاوي أن متولّي القاهرة الأمير شجاع الدين محمد نزل وأعوانه عند رجل من أهل الصعيد، وباتوا عنده، فأكرمهم خير إكرام، وقدّم لهم كل ما يليق بهم[٩٠].

إنّ صورة رجال مصر الكرماء في الليالي لها خلفيّة تاريخيّة واقعية تسجّلها بعض المصادر التاريخيّة والاجتماعيّة، إذ يذكر ابن خلدون[٩١] أنّ أهل مصر « أكثر صدقة وإيثارًا من جميع أهل الأمصار» . ويتعاطف الرّاوي مع رجال مصر، وبطبيعة الحال يفضّلهم على رجال الإفرنج، انطلاقًا من أيديولوجيته الإسلاميّة، ويدفع نساء رجال الإفرنج إلى ترك أزواجهنّ محبّة برجال مصر، ففي حكاية « الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي»، يتزوّج أحد رجال الصعيد امرأة إفرنجية جميلة، من سبايا نساء الإفرنج -أيام الحروب الصليبية- وعندما تُعقد الهدنة بين المسلمين والإفرنج لتبادل سبايا الطرفين وفقًا لمعاهدات وقف الحرب، يُحضرون المرأة الإفرنجية، ويسألها رسول ملك الإفرنج، بحضور الملك الناصر وزوجها الصعيدي: « أتروحين إلى بلادك أم إلى زوجك فقد فكّ الله أسرك أنت وغيرك. فقالت للسلطان: أنا قد أسلمت وتزوّجت وحملت كما ترون وما بقيت الإفرنج تنتفع بي، فقال الرسول: أيُّما أحبّ إليك أهذا المسلم أو زوجك الفارس فلان؟ فقالت كما قالت للسلطان » [٩٢].

أمّا الصورة النقيضة لصورة ثراء التجار الفاحش في القاهرة، فهي صورة المهمّشين اقتصاديًا وماليًا، فمقابل الثراء الفاحش هناك الفقر المدقع، فأرباب المهن الدونيّة يتضوّرون جوعًا، مقارنة بالتجار الأثرياء، ولعلّ صورة معروف الإسكافي تجسّد حال هؤلاء المهمّشين، فقد « قعد في الدكان إلى نصف النهار، فلم يأته شغل [و] لم يكن

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

معه من حقّ الخبز شيء ثم إنه مرّ على دكان الكنافي ووقف باهتًا واغرورقت عيناه بالدموع » [٩٣].

إنّ دراسة نصوص الليالي المتباعدة في الزمان والمكان، والعادات والطباع والأخلاق، من شأنها أن تجعل الباحث لا يركن إلى نتائج دقيقة وثابتة أو متشابهة، لأنّ رواة الليالي المتعددين متناقضون في رؤيتهم للحياة بعلاقاتها وقيمها، وكذلك نجد أنّ المدن والشخوص التي يصفونها، هي الأخرى مليئة بالتناقض أيضًا. وربما قد تكون ثمّة قواسم مشتركة بين الحكايات من حيث الأحداث والغايات، من جهة، وبين ملامح الشخوص ورؤيتها من جهة أخرى، لكنّ هذه القواسم تظلّ قابلة لشروخ وثغرات عديدة. ومن هذه الثغرات يبرز المتغاير، فإذا كان أحد الرّواة قد وقف مع الأمراء والأميرات، والأبطال التجار المغامرين، وحقّق لهم كل ما يطمحون إليه، فإنّ راويًا آخر وقف مع إسكافي فقير (معروف الإسكافي)، ونقله من حيّه الفقير بمصر، إلى مدينة (اختيان الختن)، وأكرمه وسخّر له خاتم «شبيك لبيك أنا بين يديك »، ثم جعله ملكًا على مدينة (اختيان الختن)[٩٤]. وإذا كان راوٍ آخر قد رأى أنّ المرأة شرّ مطلق، فهي الزانية في طبعها، والماكرة في حياتها، فإنّ راويًا آخر قد رآها مليئة بالنبل والكرم والطهارة.

وإذا كان أحد رواة ألف ليلة وليلة يذكر أنه « كان في مصر سلطان عدل وإحسان»[٩٥]، فإنّ راويًا آخر، انطلاقًا من فكرة الثنائيات الضدّية التي يركّز عليها معظم رواة ألف ليلة وليلة، يذكر أنه كان في مصر ملك يسمى شمس الدولة، يعذّب الناس ظلمًا، ويغتصب ممتلكاتهم قهرًا، إذ أرسل هذا الملك «إلى أخوي جودر وجاء بهما ورماهما تحت العذاب، (...) وأخذ الخرجين منهما ووضعهما في السجن»[٩٦]. وإذا كان ظلم الحكام مستشريًا في مصر، شأنها شأن كل مدن ألف ليلة وليلة وبلدانها، فإنّ هذا لا يمنع من أن تكون هناك شريحة تنتمي إلى السلطة، وتتحلّى بالكرم والنبل، ويؤلمها ما يعاني منه المظلومون والبؤساء في مصر، وهذا ما نلمسه في حكاية: « معروف الإسكافي وزوجته فاطمة العرّة »، إذ إنّ القاضي فطن إلى مكر زوجة معروف الإسكافي، فأنصفه منها، وتصدّق عليه: « وكان ذلك القاضي من أهل الخير، فأخرج له ربع دينار» [٩٧]. ولا يعني إذا كان هذا القاضي عادلاً، أنّ أعوانه عادلون، بل هم ظلمة، مثلهم مثل طبقة الحاشية التي تحيط بالرجل السلطوي الكبير في الليالي، سواء أكان خليفة أم سلطانًا، أم قاضيًا أم وزيرًا، إذ يذكر الراوي في الحكاية السابقة أن رسل القاضي، بعد أن أفرج هذا عن معروف الإسكافي، ذهبوا ليأخذوا منه أتاوة غصبًا، على الرغم من أنه بريء ومظلوم: «وإذا بالرسل أتوا إليه وقالوا له: هات خدمتنا؟ فقال لهم: إنّ القاضي لم يأخذ مني شيئًا بل أعطاني ربع دينار. فقالوا: لا علاقة لنا بكون القاضي أعطاك أو أخذ منك، فإن لم تعطنا خدمتنا أخذناها قهرًا عنك» [٩٨].

ومن الملامح الاجتماعيّة في قاهرة ألف ليلة وليلة: ملمح المرأة الشريرة والمتعهّرة والشاذّة جنسيًا، وربما يكون هذا الملمح أهم ملمح لنساء ألف ليلة وليلة بعامة، ولنساء القاهرة بخاصة، «وشيء طبيعي أن يكثر الشرّ الصادر عن المرأة في الليالي هذه الكثرة، وتعجّ به الصفحات فقد قامت هذه الحكايات على أساس من خيانة زوجة لزوجها، وتسببت في تعقيده وسفكه للدماء» [٩٩]. وتمثّل فاطمة العرّة، في حكاية « معروف الإسكافي »، المرأة في أبشع صورها الشريرة والمحتالة. فقد كانت، كما يقول الرّاوي:[١٠٠] «فاجرة شرّانيّة قليلة الحياء كثيرة الفتن، وكانت حاكمة على زوجها، وفي كل يوم تسبّه وتلعنه ألف مرة».

ومن صور هذه المرأة الشريرة، شراهتها في طلب الطعام، وإصرارها على أن يجلب لها زوجها كنافة خاصة بعسل النحل، وعندما لم يجد في المدينة إلاّ كنافة بعسل القصب اضطرّ أن يحضرها، وعند ذلك انفجرت زوجته شرًا وسفهًا: « وغضبت عليه وضربته بها في وجهه وقالت له: قم يا مغفّل هات لي غيرها، ولكمته في صدغه، فخلعت سنًا من أسنانه ونزل الدم على صدره (...) وقبضت على لحيته» [١٠١]. ولم تكتف هذه المرأة بذلك بل حاكت له مكيدة كادت تودي به، لأنه لم يستطع أن يشبع رغباتها المسعورة في الحصول على الحلوى الفاخرة غالية الثمن، إذ إنها ربطت رباطًا على ذراعها ولوّثت ثيابها بالدم، وذهبت باكية إلى القاضي مدّعية أن زوجها معروف الإسكافي ضربها، وكسر ذراعها وقلع سنّها.[١٠٢] وعندما يصلحهما القاضي تذهب إلى قاضٍ آخر وتشكو زوجها، مدّعية أنّه ضربها للمرّة الثانية.[١٠٣] فيصلحهما القاضي، وعندما يعجز الزوج عن شراء الحلوى تصمّم على الانتقام منه وإذلاله، فتذهب إلى الباب العالي لتشكو زوجها للمرة الثالثة.[١٠٤] فما كان من هذا الزوج المخذول إلاّ أن ترك القاهرة هاربًا منها إلى مدينة أسطورية بعيدة اسمها «اختيان الختن» [١٠٥].

وتمعن بعض نساء القاهرة، في ألف ليلة وليلة، في التهتك والشذوذ الجنسيّ، الذي يصل إلى حدّ ممارسة الجنس مع الحيوانات، فها هي المرأة في حكاية «وردان الجزّار» . لا يذكر الراوي اسمًا لها. تلوذ بجسد دبّ ضخم في دهليز بعيد عن القاهرة، وتشتري كل يوم خروفًا من وردان الجزّار، وتطعمه لهذا الدبّ. يصف الرّاوي حالتها مع هذا الدبّ: «فلما فرغت [من إطعامه] أكلت كفايتها، ووضعت الفاكهة والنقل وحطّت النبيذ وصارت تشرب بقدح وتسقي الدبّ بطاسة من ذهب، حتى حصلت لها نشوة السكر، فنزعت لباسها ونامت، فقام الدبّ وواقعها وهي تعاطيه من أحسن ما يكون لبني آدم، حتى فرغ وجلس، ثم وثب إليها وواقعها. ولما فرغ جلس واستراح. ولم يزل كذلك حتى فعل فيها عشر مرات ثم وقع كل منهما مغشيًا عليه، وصارا لا يتحركان»[١٠٦]

قد يبدو الفعل الجنسي هنا أسطوريًا في عدد مرّاته، وفي الفضاء الواقع فيه (فضاء الدهليز)، لكنه ليس مستحيلاً، من حيث كونه تعبيرًا عن إحدى حالات الشذوذ التي لم تسلم منها أية مدينة من المدن العربية الإسلاميّة، إذ شهدت العلاقات الجنسيّة انحرافًا، و« زحف الشذوذ الجنسيّ على المجتمعات العربية»[١٠٧]،

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وعلى الرغم من محاربة الفقهاء والمتشدّدين، للشذوذ الجنسيّ في المدينة الإسلاميّة، إلاّ أنّه « استمرّ رغم كل المراقبة والتحذيرات »[١٠٨].

ويبدو أنّ مدينة القاهرة في أزمنة الليالي كانت أكثر المدن فضاءً للحريّات والعلاقات الجنسيّة، ويبدو أنّ سلطاتها في تلك الأزمنة كانت غير صارمة في تطبيق الحدود على العلاقات الجنسيّة، أو هي غير قادرة على تطبيقها، نظرًا للكمّ الكثير من الأجناس البشرية التي وفدت إلى القاهرة.[١٠٩] وهنا تتشابه القاهرة مع بغداد إلى حدّ بعيد من حيث الجنسيّات المتعددة التي دخلتها عبر التاريخ.

ويُلاحظ أن الشخوص إذا ما تعرّضت في بعض مدن ألف ليلة وليلة إلى الكبت والحرمان الجنسيّ، فإنها تهرب من مدنها إلى فضاء مصر لتحقيق لذّاتها الجنسيّة، كما في حكاية « داء غلبة الشهوة عند النساء ودواؤها»، إذ تَوْلَع إحدى الشابات الأميرات بنكاح قرد، وعندما يكتشف والدها السلطان أمرها، يقرّر أن يقتلها خوف الفضيحة، فتهرب مع قردها إلى فضاء مصر الآمن لتحقيق الفعل الجنسيّ الشاذ معه: « فتزيّت بزيّ المماليك وركبت فرسًا وأخذت لها بغلاً حمّلته من الذهب والمعادن والقماش ما لا يوصف، وحملت القرد معها وسارت حتى وصلت به مصر، فنزلت في بعض بيوت الصحراء» [١١٠]. ولا يقصد الراوي بالصحراء تلك البعيدة عن مصر، بل يقصد الفضاء المحيط بمدينة القاهرة، والبعيد نسبيًا عن الازدحام، لأنّ هذه الأميرة كانت تشتري كل يوم « لحمًا من شاب جزّار.» [١١١]. هذا إذا عرفنا أنّ المرافق التجاريّة في تلك الأيام لم تكن موجودة في الصحراء، باستثناء بعض الخانات التي شكّلت محطّات استراحة على الطرق الصحراوية، التي تربط بين المدن.

ونساء القاهرة متحررات وجريئات، إذ يخرجن إلى الأسواق ويلتقين بالرجال، ويبدو هذا طبيعيًا في مدينة تغصّ أسواقها بالازدحام، ويلتقي فيها الرجال بالنساء، من دون كبير عناء، فـ «تزاحم البشر في القاهرة [عبر تاريخها الطويل] يجعل الفصل بين الجنسين مستحيلاً.»[١١٢]. ويبدو أنّ مظاهر الترف التي عرفتها بعض أسر القاهرة الأرستقراطية، دفعت هاته النسوة للتحرّر، والاحتكاك بالرجال، والخروج من فضاءات المنازل إلى فضاءات المتاجر والأسواق المزدحمة بالمارين من الجنسيّات المتعددة.[١١٣]

وتشير حكاية «النصراني لملك الصين» الداخلة ضمن حكاية «الأحدب وملك الصين» إلى أنّ إحدى نساء القاهرة الجميلات المتحرّرات التقت بتاجر بغدادي شاب في سوق «قيصرية جرجس» بالقاهرة، وسرعان ما أعلنت له حبّها، وواعدته على اللقاء بمنزلها، المليء جمالاً وأبّهة، بحي الحبّانيّة. يصف الراوي لقاءهما بمنزل المرأة: «لم أشعر إلاّ و الصبية أقبلت وعليها تاج مكلّل بالدرّ والجوهر، فلما رأتني تبسّمت وحضنتني ووضعتني على صدرها، وجعلت فمها على فمي وجعلت تمصّ لساني وأنا كذلك (...) وتمكن حبّها عندي وهان عليّ جميع المال. ثم أخذنا نلعب ونتهارش مع العناق والتقبيل إلى أن أتى الليل.. » [١١٤].

ويسجّل التاريخ بعضًا من ملامح نساء مصر المتحرّرات واللواتي يخرجن إلى الأسواق بحريّة[١١٥]، من دون أن يثير خروجهن حفيظة مجتمعهن وأزواجهن وإخوتهن وآبائهن. وعلى ما يبدو كان هذا الخروج الحرّ مثيرًا ومغريًا للطامعين والمغامرين بغزو البلدان واغتصابها، ودافعًا لغزو مصر، إضافة إلى ذلك حالة الترف والبطر التي عاشتها مصر، والتي كانت هي الأخرى مغرية للاندماج فيها، ولحصاد نعيمها. ويروي تقي الدين أحمد بن علي المقريزي[١١٦] الخبر الآتي: « أرسل أحد المغاربة جارية إلى مصر لتباع بألف دينار. فأتت سيدة وساومت على شرائها بعد أن فحصتها ثم اشترتها بستمائة دينار. وكانت السيدة ابنة الإخشيد محمد بن طغج ملك مصر حينذاك. وعندما عاد التاجر إلى وطنه روى الحكاية للمعزّ» . فما كان من المعزّ لدين الله الفاطمي، إلاّ أن أغرته هذه الحكاية، فاستدعى الشيوخ، وطلب من التاجر أن يحكي لهم الحكاية، وعندها قرّر أن يغزو مصر قائلاً:[١١٧] « يا إخواننا انهضوا إلى مصر، فلن يحول بينكم وبينهم شيء فإنّ القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشتري جارية لتتمتع بها وما هذا إلاّ من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم[١١٨] فانهضوا لمسيرنا إليهم» . فأجاب الشيوخ: « سمعًا وطاعة».

وإذا أخذنا بصحّة هذا الخبر، فإنّه يمكن اعتبار أنّ إيديولوجيا غزو مصر من قبل المعزّ لدين الله كانت تستتر خلف نوايا عدوانية مبيّتة، تطمح لتحقيق مكاسب خاصة، يحققها احتلال مصر، هذا البلد الذي يعني بالنسبة للمعزّ الرفاهية وملذّات العيش، وفضاء حرًا تحقق النفس فيه ما تصبو إليه من ثراء وامتلاك وملذّات لا يستطيع فضاء القيروان أن يحققها للمعزّ وقادته وأركان دولته. وإذا كانت جيوش المعزّ لدين الله زحفت من القيروان إلى مصر واستطاعت أن تحتلها، فإنّ هذا الاحتلال لم يكن ناتجًا عن ضعف نفوس رجال مصر، ولم يكن ناتجًا عن الحريات الاجتماعيّة العامة التي أعطت المرأة نوعًا من الاستقلالية في تصرفاتها، بعيدًا عن سلطة الرجال وجبروتهم، بل لأن سياسة الغزو كانت مهيّأة نفسيًا لأن ترى في مصر فضاء جميلاً، تتحقّق فيه أحلام الغزاة الجامحة صوب الرفاهية وامتلاك الأموال والابتناء بالجواري، إضافة إلى ذلك الاستعدادات الحربية لجيش غازٍ ضخمٍ «بلغ تعداده مائة ألف مقاتل مجهّزين بخير عتاد وبصحبتهم ألف جمل وعدد لا يُحصى من الخيول التي حُمّلت بالفضّة والمؤن والذخائر» [١١٩].

وإذا كانت مصر في بعض حكايات الليالي فضاء حرًا تتحقق فيه حرية الفعل الجنسيّ، باعتباره فضاءً مفتوحًا على الموبقات والمعاصي . وهي في هذا تشبه بغداد إلى حد بعيد، بل هي تفوقها. فإنه من الطبيعي أن يكون من بين هذه المعاصي شرب الخمرة. ففي حكاية « الملك الناصر وولاته الثلاثة »[١٢٠]، يعترف والي القاهرة للملك الناصر بأن رجلين من رجال سلطته القضائية كانا ولعين بالخمرة، وما استطاع أن يضبطهما متلبّسين بالجرم، عندها احتال عليهما، وعندما ضبطهما عفا عنهما مقابل تقديمهما له رشوة

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

مالية[١٢١]، على أنّ والي القاهرة لم يكن معنيًا في الحكاية بمنع الناس من شرب الخمرة،[١٢٢] لأنه كان هناك دكاكين « للخمارين » [١٢٣]، كما تذكر الحكاية، بل كان همّه أن يضبط هذين الرجلين من رجال سلطته، حتى ينتقم منهما[١٢٤]، من دون الآخرين، ويقدّمهما إلى القضاء.

وفي حكاية «النصراني لملك الصين» يرتحل بطل الحكاية، وهو شاب بغدادي، -لا يذكر الراوي اسمًا لهذا الشاب- إلى القاهرة، وينزل في أحد الخانات بحي « بين القصرين»، ويبيع تجارته، ويمعن في ملذّات الطعام والشراب: « وأقمت أيامًا كل يوم أفطر على قدح الشراب وأُحْضِر اللحم الضاني والحلويات » [١٢٥]. وعندما يتعرّف إلى إحدى السيدات القاهريات الثريات، فإنها تدعوه إلى منزلها، وهناك يغيبان في حمّى الشراب والجنس كل ليلة: «فقدّمت لنا الجواري الطعام والمدام فإذا هي حضرة كاملة فشربنا إلى نصف الليل ثم اضطجعنا، ونمنا فنمت معها إلى الصباح، فما رأيت عمري مثل هذه الليلة » [١٢٦].

ونظرًا لثراء القوم وبطرهم في القاهرة، وميلهم إلى اللذائذ والمتع، فإنّ حفلات شرابهم تكون عامرة بالطعام الفاخر. ويصف الرّاوي العشاء الذي أعدّه الشاب التاجر البغدادي، وأرسله إلى عشيقته القاهرية: « وجهّزت العشاء، فعملت جوزًا ولوزًا وتحتها أرز مفلفل، (...) وأخذت فاكهة ونقلاً ومشمشًا وأرسلتها » [١٢٧]. وإذا كانت عشيقة هذا الشاب (القاهرية) في إحدى صفاتها مخلّة بالعرف الاجتماعيّ باعتبارها هي الباحثة عن الرجال، الطالبة لهم، والفاعلة في علاقاتها الجنسيّة، لأنها هي التي تطلب من الشاب تحقيقها، وهي التي تبتزّه، لأنها تقبض منه بعد كل لقاء جسدي «خمسين دينارًا» [١٢٨]، فإنها، وعندما يفتقر هذا الشاب ويصرف كل أمواله عليها، تبدي نبلاً عميقًا وأخلاقًا كريمة، إذ تعيد له كل أمواله، وتملّكه كل أموالها، وتتزوّجه حلالاً. يقول الشاب[١٢٩]: « وأرسلت إلى الشهود فحضروا فقالت لهم اكتبوا كتابي على هذا الشاب واشهدوا أني قبضت المهر، فكتبوا كتابي عليها ثم قالت: اشهدوا أنّ جميع مالي الذي في هذا الصندوق وجميع ما عندي من المماليك والجواري لهذا الشاب فشهدوا عليها، وقبلت أنا التمليك وانصرفوا بعدما أخذوا الأجرة، ثم أخذتني من يدي وأوقفتني على خزانة وفتحت صندوقًا كبيرًا، وقالت لي انظر هذا الذي في الصندوق، فنظرت فإذا هو ملآن مناديل، فقالت هذا مالك الذي أخذته منك (...) فخذ مالك فقد ردّه الله عليك» .

إنّ هذا الملمح النبيل لصورة الأنثى في الليالي لا يتكرّر كثيرًا، لأنّ الغالبية العظمى من نساء الليالي محتالات وداعرات، ومبتزّات لأموال الرجال، وهذا ما تثبته البنية الفكرية والإيديولوجية لمجمل الرّواة الذين أضفوا على نساء الليالي مزيدًا من الدونية والمكر والخداع ونقص العقل.[١٣٠]

ومن وجوه القاهرة في ألف ليلة وليلة: وجه الاحتيال واللصوصية، وهو الوجه الأبرز لهذه المدينة، فهناك المرأة المحتالة، وهناك الرجل المحتال، سواء أكان لصًا أم فقيرًا صعلوكًا، أم ملكًا كبيرًا.

ومن لصوص القاهرة المحتالين، ما ذكره الراوي في حكاية «الملك الناصر وولاته الثلاثة»، فبينما كان والي بولاق يومًا من الأيام جالسًا في داره مهمومًا، من جرّاء دَين أصابه: « ثلاثمائة ألف دينار » [١٣١]، وإذا بمجموعة من اللصوص يطرقون بابه، ويقولون له[١٣٢]: « إننا لصوص وغنمنا في هذه الليلة غنيمة عظيمة وجعلناها برسمك لتستعين بها على هذه القضية التي أنت مهموم بسببها وتسدّ بها الدَّين الذي عليك» . فما كان من الوالي إلاّ أنّ قدّر الموقف الذي عدّه كريماً من هؤلاء اللصوص، وأعطاهم المئة ألف دينار، التي كان قد ادّخرها لرد دينه، كما يذكر الراوي[١٣٣]، معتبراً أنّ هذا المبلغ جزء من ثمن هذه الغنيمة التي ظنّ أنها كافية لردّ كل ديونه، إلاّ أنّ اللصوص لم يكونوا أصحاب مروءة، فهم مجرّد لصوص محترفين[١٣٤]، ومحتالين مهرة. وتنطلي الحيلة على والي بولاق، ويفاجئنا راوي الحكاية بمكوّنات هذه الغنيمة، على لسان الوالي نفسه: «فلما أصبح الصباح رأيت ما في الصندوق نحاسًا مطليًا بالذّهب والقصدير يساوي كله خمسمائة درهم. فعظم عليّ ذلك وضاعت الدنانير التي كانت معي، وازددت غمًا على غمّي»[١٣٥].

ويبقى سرد الراوي لهذه الحكاية ليس بريئًا، و« ليست هناك حكايات بريئة »[١٣٦] في ألف ليلة وليلة، فهذا الراوي يُدين بشكل غير مباشر سلوك والي بولاق المتعاطف مع الظّلمة في مدينته من جهة، يشير من جهة أخرى إلى الجهل الذي تغرق فيه السلطة، فبدلاً من أن يقبض الوالي على هؤلاء اللصوص، ويردّ ما سرقوه إلى أصحابه، ويكشف ما في الصندوق قبل ذهابهم، فإنه يعطيهم مائة الألف دينار، ويتركهم يمضون «تحت الليل إلى حال سبيلهم، ولم يعلم بهم أحد»[١٣٧].

وقد كان فقراء القاهرة في الليالي قادرين أيضًا، على حبك الحيلة في أعلى تقنياتها. فها هو معروف الإسكافي، بعد أن يهرب من القاهرة ويلجأ إلى «اختيان الختن»، يمارس الاحتيال ويدّعي أنه تاجر ثري كبير، وأنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل بعد أيام إلى المدينة، ويصدّقه الناس، ويقرضونه « ستين ألف دينار»[١٣٨]، ويوهم الناس بأنّ أمواله الكثيرة جدًا القادمة مع الحملة قادرة على تبديد فقر المدينة، فيقوم بتوزيع المبلغ الذي اقترضه على فقراء المدينة[١٣٩]، ومن ثمّ لتكون هذه الحيلة طريقًا إلى كسب ودّ الملك، فما كان من الملك إلاّ أن قرّبه، ورغب في تزويجه ابنته الجميلة[١٤٠]. ووفق النسق السحريّ الذي يحكم بنية السرد والفضاءات المكانية، التي يرتحل إليها السرد، يضفي الراوي على سلوك معروف الإسكافي هالة من الثراء الأسطوري، فيبدأ بتشكيل حالات من التخيّل الكاذبة، تقوم بدورها في حبك حيلة جديدة على الملك وابنته، إذ يدّعي أنه سيقدّم لابنة الملك مهرًا يليق بمكانتها السياسيّة والاجتماعيّة. يقول معروف الإسكافي[١٤١]: «لابدّ أن أدفع صداقها خمسة آلاف كيس،

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

وأحتاج إلى ألف كيس أفرّقها على الفقراء والمساكين ليلة الدخلة، وألف كيس أعطيها للذين يمشون في الزّفّة، وألف كيس أعمل بها الأطعمة للعساكر وغيرهم؟ وأحتاج إلى مائة جوهرة أعطيها للملكة صبيحة العرس، ومائة جوهرة أفرّقها على الجواري والخدم، فأعطي كل واحدة جوهرة تعظيمًا لمقام العروسة؟ وأحتاج إلى أن أكسو ألف عريان من الفقراء».

إنّ هذا التخيّل السحريّ الخارق، الذي يحلم به رجل إسكافي فقير، هو بنية تتكرر في غير حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، فعندما يجد هذا الفقير أنّ الواقع الذي يعايشه لا يحقق ما يصبو إليه، فإنه يتحايل على من حوله، ويضفي على حيلته تخيّلات لا تتحقّق إلاّ بالمصادفات الغرائبية السحريّة الموجودة في ألف ليلة وليلة، فـ «في النصوص العجائبية -وألف ليلة وليلة من أهمها- يروي المؤلف أحداثًا غير قابلة للوقوع في الحياة»[١٤٢]. وطالما أنّ الراوي الشعبي يعايش واقعًا أسود، ويتموضع في طبقة دونية مهمّشة منه، فإنه شكّل بطلاً شعبيًا كمعروف الإسكافي، جعله يتجاوز هذه الطبقة الدونية وفق عمليات التخيّل، وصولاً إلى الطبقة العليا، والزواج بإحدى نسائها، وحمّل هذا البطل أحلامه الملغاة وأوهامه التي يستحيل أن تتحقق في واقعه الأسود، ففي الأدب الشعبي «سبق لأقدم الشعوب بحقّ أن حقّقت رغباتها في حكاياتها، وهي تلك الرغبات التي لم تظفر بتحقيقها قطّ في الحياة»[١٤٣].

ويبقى فضاء مصر من أهم الفضاءات المكانية التي يعتمد فيها الناس، من خلال علاقاتهم الاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة، على الحيلة لتحقيق مآربهم. وعلى الرغم من أنّ بغداد كانت حقلاً خصباً للشطّار والمحتالين، إلاّ أن القاهرة فاقتها في خبرات الاحتيال في بعض الأحيان، فها هو علي المصري ابن التاجر حسن الجوهري يأتي إلى القاهرة، وعندما يصل إلى مدينة بغداد يحتال على بوّاب مدينتها وعلى سكانها مدّعيًا أنه تاجر كبير، ويوهمهم أنّ حملته التجاريّة الكبيرة ستصل إلى بغداد بعد أيام قليلة[١٤٤]، وها هو علي الزيبق المصري يبزّ كل محتالي بغداد، ويتفوّق على حيلهم بحيل أشدّ ذكاء ومهارة منها.[١٤٥]

لقد كان « القصاصون العرب [في ألف ليلة وليلة] مدينين للمصريين بأعمال اللصوص الماكرة وبالحيل »[١٤٦]. وقد ظهرت معظم أشكال المكر والاحتيال في كل مدن ألف ليلة وليلة . العربية وغير العربية . وبخاصة في مدينتي القاهرة وبغداد. ولم تقتصر الحيلة على مذهب دون آخر، فهي عند المسلمين والمسيحيين واليهود والمجوس، وهم مواطنو مدن ألف ليلة وليلة. وقد تورّط فيها أهم ملوك مصر في الليالي، وهو الملك الناصر (أشهر سلاطين المماليك)، إذ احتال هذا الملك على وزيره، أبي عامر بن مروان، لكي يأخذ منه غلاماً جميلاً من غلمان النصارى كان قد أُهدي إليه، وبعد أن يأخذه حيلة، يشي أعداء أبي عامر عند الملك الناصر بأنّ «عنده من الغلام بقية حرارة وأنه لا يزال يلهج بذكره حين تحركه الشمول فيقرع السنّ على إهداء الغلام»[١٤٧]. وعندما سمع الملك الناصر هذه الوشاية قرر أن ينتقم من وزيره أبي عامر، بعد أن يحتال عليه ليكشف مدى إخلاصه وولائه له، بكتابة رسالة مزوّرة عن لسان الغلام، يطلب فيها من مولاه الوزير أن يتحايل في استدعائه من عند الملك، لأنه لا يطيق الصبر على مفارقته، وأنّه غير راغب بالبقاء في دار الناصر، لكن الوزير وبفطنته السياسيّة اكتشف أنّ هذه الرسالة ما هي إلاّ مكيدة من الملك لاكتشاف مدى إخلاصه، فأخذ رسالة الغلام، وكتب على ظهرها هذه الأبيات:[١٤٨]

أمن بعد أحكام التجارب ينبغي ... لذي الحزم أن يسعى إلى غاية الأسد
ولا أنا ممن يغلب الحبّ عقله ... ولا جاهل ما يدّعيه أولو الحسد
فإن كنت روحي قد وهبتك طائعًا ... وكيف تردّ الروح إن فارقت جسدي.

ويتابع الراوي قائلاً:[١٤٩] «فلما وقف الناصر على الجواب تعجّب من فطنته ولم يعد إلى استماع واشٍ فيه بعد ذلك».

وقد كان ملوك مدن الليالي، سواء أكانت عربيّة أم أجنبيّة، يستشيرون ويقرّبون أصحاب الحيل الأذكياء، وعندما يجدون أنفسهم عاجزين عن حلّ مشكلة معيّنة، فقد كانوا يأخذون بآرائهم، وبخاصة آراء العجائز الماكرات اللواتي يفقن رجال زمانهنّ مكراً ودهاءً وخبرةً معرفيّة. فعلى سبيل المثال نجد أنّ الملك أفريدون ملك القسطنطينية، عندما تهزمه الجيوش الإسلاميّة -جيوش الملك شركان حاكم دمشق، وأخيه ضوء المكان حاكم بغداد- يلجأ إلى العجوز شواهي ذات الدواهي (أم حليفه الملك حردوب)، لكي تخطط له كيف يحارب ويحتال على الجيوش الإسلاميّة،[١٥٠] أي أنّ أصحاب الحيل والمكر والمكيدة -في الليالي- لم يكونوا يحتالون من أجل كسب العيش، أو إشباع شهواتهم الجنسيّة، أو من أجل الحصول على منصب يقرّبهم من السلطان فحسب، بل كانت لديهم معارفهم في خطط الحروب العسكرية، وكانت لهم نظرتهم الثاقبة، لما يجري في مدنهم، وعلاقاتها الطبقيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وقد تعلّموا الحيلة وأتقنوها وتفننوا في حبكها.

إنّ القاهرة التي تبدو واقعية في الليالي تمتزج بكثير من اللوحات السحريّة، والتخيّليّة[١٥١]، التي أضفاها الرواة عليها، وهذه حال معظم مدن الليالي. فالمدينة الواقعيّة لا تتشكّل من فضاءاتها وعاداتها وملامحها التاريخيّة الواقعية فحسب، بل توغل بعيدًا في السحر والخرافة إذا ما رأى الرّواة أنّ ثمّة ضرورة لهذا السحر، لأنّ الحدث الواقعي لا ينمو مكتفيًا بذاته في مدن الليالي، بل يحتاج إلى حوافز سحريّة لاستكمال بنائه.

ويحفل الفضاء السحريّ للقاهرة، في حكايات الليالي، بالجان وبأولاد ملوك الجان. ومن ملامح العوالم التخيّليّة والسحريّة التي تحتفي بالجان والعفاريت ما يسجّله الراوي في حكاية «معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة»، فعندما يهرب معروف من شرّ زوجته وظلمها يجلس باكيًا عند إحدى الدور الخربة المهجورة بحي العادلية، وإذا بحائط الدار ينشقّ، ويبرز منه مارد «طويل القامة

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

رؤيته تقشعر منها الأبدان »[١٥٢]، ويطلب منه أن يخبره بقصته حتى يساعده، وعندما يعرف قصّته مع زوجته يقول له[١٥٣]: «أتريد أن أوصلك إلى بلاد لا تعرف لك زوجتك فيها طريقًا؟ قال له: نعم. قال: اركب فوق ظهري. فركب وحمله وطار به بعد العشاء إلى طلوع الفجر، وأنزله على رأس جبل عالٍ». ولأنّ معروفًا الإسكافي يعيش في فضاء شعبي مصري يؤمن بالسحر والقدرات الخارقة للجان والعفاريت، فإنّ الرّاوي - في ما بعد- يقدّم له كل الحوافز (الموتيفات) السحريّة التي تجعله غنيًّا في مدينة «اختيان الختن» الأسطورية، ثم ملكًا عليها، إذ يقدّم له كنزًا أسطوريًا في طريق رجوعه من «اختيان الختن»، بعد أن هبطت عليه المواجع والأحزان. ويذكر الراوي أنه بينما كان عائدًا شاهد رجلاً مسكينًا يحرث أرضه في إحدى القرى الصغيرة، فعرض عليه أن يساعده في الحراثة، ومن خلال حراثته وجد كنزًا كبيرًا غاصًّا بالأموال والجواهر الثمينة.[١٥٤]

إنّ الراوي الشعبي، وهو يقدّم هذا الكنز الكبير لبطله معروف الإسكافي، لن يعرّضه لهجمات اللصوص وقطّاع الطرق، وهو في طريق عودته إلى «اختيان الختن»، بل سيقدّم له -حتى تصل الحكاية إلى ذروتها- حرّاسًا لهذا الكنز، ولأنّ حراس هذا الكنز الكبير قد يعجزون عن الدفاع عنه، فيما إذا كانوا بشرًا عاديين، فإنه وفقًا للنسق السحريّ الغرائبي، سيقدّم له خاتمًا سحريًّا يخدمه مارد من الجان[١٥٥]، وستسهم هذه الأداة السحريّة في نمو الحكاية، لأنّها ستعيد معروفًا الإسكافي إلى مدينة «اختيان الختن» مكللاً بالمال والمنعة، ومن شأن هذه الأداة السحريّة أنّها تساعد البطل «في النهاية [على] التخلص من سوء الطالع، ولكن قبل استلام الأداة السحريّة يصبح البطل عرضة لعدد مختلف من الأحداث التي تؤدّي كلها، على أية حال، إلى نتيجة حصوله على تلك الأداة»[١٥٦]. ولم تسهم هذه الأداة السحريّة في تخليص معروف الإسكافي من سوء طالعه فحسب، بل قذفت به إلى أعلى المراتب الاجتماعيّة والسياسيّة وتوّجته ملكًا على «اختيان الختن»، بعد أن أثبت للناس جميعًا أنّه صادق في ثرائه، وأثبت لوالد زوجته الملك أنه كفؤٌ لابنته الجميلة.

ويتكرّر إسعاف البطل في حكايات ألف ليلة وليلة المصرية بالأداة السحريّة التي تنقله من وضع طبقيّ دوني إلى وضع آخر متميّز، سلطوي وثري، أو تزيل عنه همًا أو ظلماً حلّ به، وبخاصة إذا كان هذا البطل من أفراد الطبقة الشعبيّة، فالراوي في حكاية « جودر وأخويه »، يجعل التاجر المغربي يقدّم لجودر -عندما لقيه في الحجّ- خاتمًا سحريًّا، وذلك بعد أن كان أخواه سالم وسليم قد تآمرا عليه وباعاه إلى رئيس بحر السويس، ولهذا الخاتم خادم من الجان اسمه الرعد القاصف، يقوم بمساندة البطل، ويتكفّل بنقله إلى مصر[١٥٧]، وهنا يمكن القول: إنّه لا غرابة . وفق المنطق السحريّ العجائبي الذي يتحكم في علاقات الأبطال وارتحالاتهم في أن ينقل العفريت- خادم الخاتم السحريّ- جودر بن عمر من مكّة إلى مصر، لأنّ المعتقد الشعبي «يجعل للجان من القوى والسمات الفائقة ما يقدّمهم على الإنسان ذاته، فلا يعود الإنسان مركز المخلوقات، ولا هو الذي أمر الله الملائكة أن يسجدوا له ففعلوا إلاّ إبليس فقد أبى واستكبر، وإنّما هو أدنى قوة وأقلّ سلطانًا من الجان..»[١٥٨]. وستسهم هذه الأداة السحريّة (الخاتم) في ما بعد[١٥٩]، في أن تقدّم لجودر أجمل امرأة في المدينة، وهي الأميرة آسية بنت الملك شمس الدولة[١٦٠]، وفي تتويجه ملكًا على مصر، بعد أن يموت ملكها شمس الدولة[١٦١].

إذا كان الراوي في بعض الحكايات المصرية لا يقدّم لأبطاله الفقراء الأداة السحريّة التي ستجعلهم يتجاوزون مدنهم ومواطنهم مالاً وسلطة، فإنه لا يحرمهم من الكنوز الأسطورية[١٦٢] التي تجعلهم في مصافِّ الملوك ثراءً. ويبقى تقديم هذه الكنوز لهؤلاء الأبطال المهانين اقتصاديًا، نوعًا من التعويض والسمّو على الواقع الرثّ وتجاوزه بالاتكاء على الحلميّ والتخيّليّ الذي يحقّق الإنسان فيه كل ما يصبو إليه، «ففي المجتمع الذي لا تتاح فيه الحياة المنطلقة يهرب العامّة من مواجهة مشاكلهم ومنها مسألة الحصول على الثروة إلى تخيّلات وأوهام، فما أيسر أن يعيش الوهم باستطاعة الحصول على كنز متى ألقيت التعزيمة المناسبة »[١٦٣]. إلاّ أنّ الرّاوي، في موضع آخر، قدّم الأداة السحريّة (خاتم شبيك لبيك) إلى البطل الشعبي جودر ابن التاجر عمر، لأنّ زمان الحكاية أسطوري تخيّليّ، وملك مصر في هذا الزمان هو ملك أسطوريّ، واسمه «شمس الدولة»، وهو غير معروف تاريخيًا من بين الملوك الذي حكموا مصر في الدولة الإسلاميّة.

ويُلاحظ أنّ الكنوز في الحكايات المصرية مرصودة بأسماء أبطال مصريين محددين[١٦٤]، ولا يمكن أن تفتح أبوابها إلاّ لهؤلاء الأبطال، وها هو الحاكم بأمر الله يقول[١٦٥] لوردان الجزّار: «إنّ هذا الكنز لا يقدر لأحد أن يفتحه غيرك، فإنه مرصود باسمك وصنعتك (...) وهو عندي مؤرّخ وكنت أنتظر وقوعه حتى وقع».

إنّ فضاءات مصر في حكاية «جودر ابن التاجر عمر» هي فضاءات سحريّة يسكنها ملوك الجان، ففي بركة «قارون»[١٦٦] يسكن الجان أولاد الملك الأحمر الذين أتوا من فاس[١٦٧]. وهذه البركة مرصودة أيضاً باسم الصياد « جودر »، إذ إنّ ملوك الجان الذين يعيشون على هيئة أسماك في هذه البركة لا يُنتصر عليهم إلاّ بشخص جودر ابن التاجر عمر، باعتباره التعويذة القادرة على فكّ سحرهم، كما يؤكّد الساحر الكهين الأبطن للمغربي عبد الصمد: « فرأيت أن هذا الكنز لا يُفْتَح إلاّ على وجه غلام من أبناء مصر اسمه جودر بن عمر، فإنه سيكون سببًا في قبض أولاد الملك الأحمر وذلك الغلام يكون صيادًا، والاجتماع به يكون على بركة قارون ولا ينفعك هذا الرصد إلاّ إذا كان جودر »[١٦٨].

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

خاتمة

هذه هي بعض ملامح مصر والقاهرة في ألف ليلة وليلة، وإن غابت القاهرة في معظم الأحيان تسميةً في الليالي واستُبدلت بمصر، فإنها هي المعنيّة في أغلب الحكايات، لأنّ الرّواة يذكرون أحياء حقيقية عرفتها القاهرة قديمًا، ولا تزال هذه الأحياء تحتفظ بأسمائها حتى وقتنا الراهن. كما أُشير إلى ذلك سابقًا.

إنّ القاهرة مدينة السحر، وهي تحتلّ في الأدب الشعبي مكانة مهمّة ومتميّزة، وهي «البلاد المليئة بالعجائب فحكاياتها الخرافية التي وصلت إلينا قد دُوِّنت في (...) أسلوب فني، وهي إلى ذلك تُعدّ ينبوعاً للتراث الشعبي والعقائد القديمة البالغة في القدم. وما يزال بعض هذه الحكايات يعيش في الحكايات الشعبية لدى كثير من الشعوب»[١٦٩]. ولا تزال فضاءات القاهرة الشعبية هي الفضاءات العربية الأولى . إذا ما استثنينا فضاءات مدن المغرب التي تضاهيها. المغلّفة بنكهة السحر والأساطير والحيل والتمائم والحُجُب، والأولياء الصالحين، والحشيش والجوزة (النارجيلة)، والمقاهي التي لا تزال تحتفظ بطعم حكايات ألف ليلة وليلة، والنساء اللواتي يقرأن الكفّ ويفتحن المندل، ويغامرن في شعاب الحياة كما الرجال، بل ربما أكثر. ويبدو أنّ هذه المدينة الثّرية البطرة، التي تعاقبت عليها حضارات ومدنيّات وأمم كثيرة، كان لها حظّ وافر من الموسيقى والخمور والجواري والملاهي والنساء. والاحتفالات بأعياد الفرح، وإقامة طقوس لهوها الخاصة،[١٧٠] والمعارف والعلوم والطبّ والسحر وفنون الاحتيال.

وكما كانت حكايات مدينة القاهرة وغيرها من مدن ألف ليلة وليلة محكومة بثنائية الواقعيّ والتخيّليّ، فإنّ حكايات القاهرة المعاصرة هي الأخرى لا تزال موشومة بكثير من الواقعيّة السحريّة والتخيّل الغرائبي.[١٧١] وأحبّ أن أشير في نهاية هذه الدراسة إلى أنّ القرآن الكريم لم يذكر أي بلد عربي باسمه في كل آياته سوى مكّة ومصر[١٧٢]. وإذا كانت مصر في الأدبيات الكلاسيكية وكتب الرحالة مثالاً للرخاء والرفاهية، والدولة المركز العامرة بالحياة، والرافلة بالترّف، كما يذكر ابن خلدون[١٧٣] نقلاً عمن تحدّث عنها: « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم ما يقضي منه العجب، حتى إنّ كثيرًا من الفقراء في المغرب ينزعون إلى النُقْلَة إلى مصر لذلك، لما يبلغهم من أنّ شأن الرَّفْه بمصر أعظم من غيرها»، فإنها لم تسلم من هجاء بعض الشعراء، الذين رأوها دارًا للفسق والبغاء. يقول أحد الشعراء فيها:[١٧٤]

مصـــــر دار الفاســـــقينا ... تســـــتفزّ الســـــامعينا
فـــإذا شـــاهدتَ شـــاهد ... تَ جنونـــــاً ومجونـــــا
وشـــــيوخاً ونســـــاء ... قـــد جعلـــنَ الفســـق دينـا

الهَوامِشُ:

(١) مؤلف مجهول: **ألف ليلة وليلة**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت. ٣٢٧/٣.

(٢) حتى، فيليب: **الإسلام منهج حياة**، تعريب د. عمر فرّوخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار١٩٨٣م. ص١٧١- ١٧٢.

(٣) القلماوي، د. سهير: **ألف ليلة وليلة**، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٦٦م، ص٢٣٢.

(٤) يؤكد أحمد حسن الزيّات أنّ حكايات ألف ليلة وليلة جُمِعت بصيغتها النهائية بين عامي (٩٢٣ – ٩٣٣ هـ)، وهما يوافقان عامي (١٥١٧ – ١٥٢٦م). يُنظر: "**ألف ليلة وليلة**" في: "ألف ليلة وليلة"، كتب **دائرة المعارف الإسلاميّة**، ترجمة إبراهيم خورشيد، ود. عبد الحميد يونس، وحسن عثمان، دار الكتاب اللبناني/ مكتبة المدرسة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٢م، الكتاب العاشر، ص٩١ .

(٥) ماكدونالد، د.ب: "**ألف ليلة وليلة**"، في: "ألف ليلة وليلة"، م ن، ص٣١.

(٦) طرشونة، د. محمود: **مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة**، المطابع الموحدة، تونس، الطبعة الأولى ١٩٨٦م. ص٩٥.

(٧) المرجع نفسه، ص٩٥

(٨) الزيّات، أحمد حسن: "**ألف ليلة وليلة . تاريخ حياتها**". في: **محاضرات المجمع العلمي العربي**، دمشق، طبعة ١٩٥٤م، المجلد الثالث، ص٤٥١.

(٩) **ألف ليلة وليلة**، ٤١٦/٢.

(١٠) المرجع نفسه، ٧١/٣.

(١١) **ألف ليلة وليلة**، ١١٩/٣.

(١٢) المرجع نفسه، ١٢٤/٣.

(١٣) المرجع نفسه، ١٧٢/٣.

(١٤) المرجع نفسه، ١٤٤/٢.

(١٥) لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول ١٩٧٧م. ص٧٠.

(١٦) منيمنة، د. سارة حسن: "**مورفولوجية مدينة دمشق**"، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت/الهيئة القوميّة للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، العدد التاسع والعشرون، تشرين الأول (أكتوبر)/ تشرين الثاني(نوفمبر)، ١٩٨٢م. ص٢٤٠.

(١٧) ذكر ياقوت الحموي أن فتحها كان يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ٢٠ للهجرة. ينظر: ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م): **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٢٦٣/٤.

(١٨) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة الألف الكتاب (الثاني) الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص١١- ١٢.

(١٩) **معجم البلدان**، ٢٦٣/٤.

(٢٠) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص١٢.

(٢١) عن/ **معجم البلدان**، ٢٦٣/٤.

(٢٢) حمّاد، د. محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٩٥م، ص١٣٥.

(٢٣) حلاّق، د. حسّان: **مدن و شعوب إسلاميّة**، دار الراتب الجامعيّة، بيروت، الطبعة الأولى آذار(مارس)، ١٩٩٢م، ٣٨/١.

(٢٤) نبيل، مصطفى: "**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**"، مجلة الهلال، دار الهلال، القاهرة، العدد الرابع، أبريل ١٩٩٣م، ص٨٣.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٢٥) الصاوي، أحمد: "**القاهرة مجمع أسواق الشرق**"، مجلة الشاهد، شركة الشاهد للنشر المحدودة، ليماسول/ قبرص، السنة الخامسة، العدد السابع والخمسون، أيار/ مايو، ١٩٩٠م، ص٧٨.

(٢٦) العلواني، نوري عباس: مراجعة لكتاب: "**دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلاميّة**" لعبد الجبار ناجي، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، السنة الثانية، العدد السابع، ربيع ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٣١٠.

(٢٧) حمّاد، د. محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م، ص١٣٨.

(٢٨) عثمان، د. محمد عبد الستّار: **المدينة الإسلاميّة**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت العدد ١٢٨، الطبعة الأولى، ذو الحجّة ١٤٠٨م/آب (أغسطس)، ١٩٨٨م، ص٩٩. وأخذ عن/ مصطفى، د. نيازي: **القاهرة: دراسات تخطيطية في المرور والنقل والمواصلات**، ص٩ – ١٠، دون أن يذكر دار النشر وتاريخ الطبعة.

(٢٩) حمّاد، د. محمد: **تخطيط المدن الإنساني عبر العصور**، ص١٣٧.

(٣٠) المرجع نفسه، ص١٣٨.

(٣١) نبيل، مصطفى: "**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**"، ص٨٣.

(٣٢) المرجع نفسه، ص٧٥.

(٣٣) أمّا مدينة بابليون التوراتية القديمة فقد «نمت في العصور القديمة بجوار الحصن الروماني الذي دُعي "قصر الشام". وفي زمن الفتح العربي توسعت بمعسكر الفسطاط الذي أقامه الفاتح عمرو بن العاص شمال شرق الحصن. وبعد قليل نمت العاصمة القديمة أيضًا في اتجاه الشمال أثر ظهور "حي العسكر"، وعلى أيدي العباسيّين في القرن الثامن، وحي "القطائع" في القرن التاسع (الميلادي) بجهود الفاطميين. وفي سنة ٩٦٩م تأسست (...) نواة، القاهرة الحديثة إلى الشمال أيضًا وتوسّعت وتحصّنت على يد صلاح الدين الأيوبي». يُنظر: دوب، ب.هـ؛ Dopp, P.H: "**القاهرة كما رآها الرّحالة الغربيون في العصر الوسيط**"، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مجلة دراسات تاريخيّة، جامعة دمشق، السنة الخامسة عشرة، العددان ٤٩/٥٠، آذار/ حزيران ١٩٩٤م، ص٦٤.

(٣٤) المرجع نفسه، ص٦٣.

(٣٥) حلاّق، د. حسّان: **مدن وشعوب إسلاميّة**، ٣٨/١.

(٣٦) حمدان، د. جمال: "**القاهرة الكبرى: دراسة في جغرافية المدن**"، مقدمة كتاب: القاهرة، لـ: ديزموند ستيورات، ترجمة يحيى حقي، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص١٢.

(٣٧) المرجع نفسه، ص١٩.

(٣٨) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص١٥.

(٣٩) المرجع نفسه، ص١٥ – ١٦.

(٤٠) **معجم البلدان**، ٢٦٦/٤.

(٤١) وهذا ما يُلاحظ حتى الآن بين سكان مصر، فالرجل من الإسكندرية أو من المنصورة أو من طنطا أو من الصعيد، وغيرها من مدن مصر، عندما يذهب إلى القاهرة يقول: أنا نازل مصر.

(٤٢) **معجم البلدان**، ٢٦٦/٤.

(٤٣) **معجم البلدان**، ١٣٧/٥. إلاّ أنّ حوادث التاريخ المعاصر تثبت بطلان هذا الرأي، فمصر مثلها مثل كل البلدان المعرّضة للخراب بفعل الكوارث الطبيعية، وما الزلازل والفيضانات التي حدثت في الأعوام العشرة الأخيرة في مصر، والتي فتكت بمئات الناس إلاّ الدليل على بطلان رأي عبد الرحمن بن العاص.

(٤٤) حلاّق، د. حسّان: **مدن وشعوب إسلاميّة**، ٤٣/١.

(٤٥) عن/ دوب، ب . هـ: "**القاهرة كما رآها الرّحالة الغربيون في العصر الوسيط**"، ص٦٨،٧٠.

(٤٦) ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ترجمة يحي حقّي، دار المعارف، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص١٣٥.

(٤٧) ثورو، بيتر: "**القاهرة قلب مصر المضيء**"، مجلة الجيل، مؤسسة الجيل للصحافة، باريس، المجلد السادس عشر، العدد الحادي عشر، تشرين الثاني/نوفمبر، ١٩٩٥م، ص١٠.

(٤٨) المرجع نفسه، ص١٤.

(٤٩) المرجع نفسه، ص١٧.

(٥٠) المرجع نفسه، ص١٥.

(٥١) نبيل، مصطفى: "**يوم كانت القاهرة عاصمة الدنيا**"، ص٧٩.

(٥٢) ميلر، أوغست: Muller, August، عن/أويسترب، ج؛ Oestrup, J: "**ألف ليلة وليلة**"، **في: "ألف ليلة وليلة"**، كتب دائرة المعارف الإسلاميّة، ص١٧. وكذلك: الموسوي، د. محسن جاسم: **الوقوع في دائرة السحر: ألف ليلة وليلة في النقد الأدبي الإنكليزي**، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص٨. وكذلك: القلماوي، د. سهير: **ألف ليلة وليلة**، ص٨٤.

(٥٣) أويسترب، ج: "**ألف ليلة وليلة**"، م س، ص١٧.

(٥٤) المرجع نفسه، ص٢٨.

(٥٥) الموسوي، د. محسن جاسم: **الوقوع في دائرة السحر**، ص٩.

(٥٦) الزيّات، أحمد حسن: "**ألف ليلة وليلة**"، **في: "ألف ليلة وليلة"**، كتب دائرة المعارف الإسلاميّة، ص٨٣.

(٥٧) الموسوي، د. محسن جاسم: م س، ص١١.

(٥٨) القلماوي، د. سهير: م س، ص٨٤.

(٥٩) وذلك في حكاية الملك الناصر والولاة الثلاثة، ألف ليلة وليلة: ١١٤/٣، وفي حكاية الأمير شجاع الدين مع الرجل الصعيدي: م ن، ٤٣١/٤.

(٦٠) **ألف ليلة وليلة**، ٩٥/١.

(٦١) المرجع نفسه، ١٣٠/١. ويطلق بعض المصريين المؤمنين بكرامات الأولياء على باب زويلة في هذه الأيام اسم: باب المتولّي.

(٦٢) **ألف ليلة وليلة**، ٩٠/٤.

(٦٣) م ن، ١٩٥/٤.

(٦٤) م ن، ٣٧٤/٤.

(٦٥) م ن، ٩٣/١.

(٦٦) م ن، ١٢٨/١.

(٦٧) م ن، ٣٤٧/٢.

(٦٨) م ن، ٨٢/٣.

(٦٩) م ن، ١١٤/٣.

(٧٠) م ن، ١١٨/٣.

(٧١) م ن، ١٢٨/٣.

(٧٢) م ن، ١٦٩/٣.

(٧٣) م ن، ٢٠٨/٣.

(٧٤) م ن، ٥٣/٤.

(٧٥) م ن، ١١١/٤.

(٧٦) م ن، ١٨٤/٤.

(٧٧) ألف ليلة وليلة، ٣٧٠/٤.

(٧٨) م ن، ٤٣١/٤.

(٧٩) الزيّات، أحمد حسن: "**ألف ليلة وليلة . تاريخ حياتها**"، في: محاضرات المجمع العلمي العربي، ٤٥١/٣.

(٨٠) ألف ليلة وليلة، ١٤٥/١.

(٨١) م ن، ١٤٥/١.

(٨٢) م ن، ٣٧٠/٤.

(٨٣) م ن، ٣٧٥/٤.

دورية إلكترونية . مُحكّمة . ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(٨٤) م ن، ٢٠٨/٣.
(٨٥) **ألف ليلة وليلة**، ٢٠٨/٣.
(٨٦) م ن، ٢٤٧/٢.
(٨٧) م ن، ١٦٩/٣.
(٨٨) م ن، ١٦٩/٣.
(٨٩) م ن، ١٦٩/٣.
(٩٠) م ن، ٤٣١/٤.
(٩١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت.٨٠٨هـ/١٤٠٦م): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** "مقدمّة ابن خلدون"، تحقيق وشرح: د. علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرّم ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ٨٧٤/٢.
(٩٢) ألف ليلة وليلة، ٤٣٥/٤.
(٩٣) م ن، ٣٧١/٤.
(٩٤) هذا ما تحكيه حكاية "**معروف الإسكافي مع زوجته فاطمة العرّة**"، في المجلد الرابع، من ص٣٧٠ إلى ص٤١٩.
(٩٥) **ألف ليلة وليلة**، ٩٤/١.
(٩٦) **ألف ليلة وليلة**، ٧٨/٤.
(٩٧) م ن، ٣٧٣/٤.
(٩٨) م ن، ٣٧٣/٤.
(٩٩) حمّاد، د. هيام علي: **المرأة في ألف ليلة وليلة**، مكتبة نهضة الشرق/ جامعة القاهرة، القاهرة، طبعة سبتمبر ١٩٧٩م، ص٧٢.
(١٠٠) **ألف ليلة وليلة**، ٣٧٠/٤.
(١٠١) **ألف ليلة وليلة**، ٣٧١/٤.
(١٠٢) م ن، ٣٧٢/٤.
(١٠٣) م ن، ٣٧٣/٤.
(١٠٤) م ن، ٣٧٤/٤.
(١٠٥) م ن، ٣٧٧/٤.
(١٠٦) م ن، ٣/ ٨٣-٨٤.
(١٠٧) بو حديبة، د. عبد الوهّاب: **الإسلام والجنس**، ترجمة هالة العوري، مكتبة مدبولي، القاهرة، طبعة ١٩٨٧م، ص٢٧٢.
(١٠٨) م ن، ص٢٣٢.
(١٠٩) تشير الدراسات التاريخيّة إلى أنّ القاهرة كانت غاصّة بالسكان من الجنسيّات المتعددة، فقد "طرق أبوابها الرقيق الأبيض من القوقاز، الذين صاروا فيما بعد حكّام البلاد تحت اسم المماليك، والرقيق الأسود من السودان (...) إلى جانب أولئك جميعًا تجار من جاوة والصين وعلماء وفقهاء من تونس ومراكش وأكثر من هؤلاء عددًا وتدفقًا حشود الفلاحين المصريين من الدلتا وجنبات الوادي، تجري في عروقهم آثار دماء فرعونية يضاف إليهم طوائف من أهل ليبيا والنوبة واليونان والصومال والحبشة". ينظر: ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ص١٤١.
(١١٠) **ألف ليلة وليلة**، ٨٦/٣.
(١١١) م ن، ٨٦/٣.
(١١٢) ستيوارت، ديزموند: **القاهرة**، ص١٥١.
(١١٣) يقول ابن خلدون عن القاهرة: "فانتقلت إلى القاهرة (...) فرأيت حضرة الدنيا. وبستان العالم. ومحشر الأمم (...) وكرسيّ الملك. تلوح القصور والأواوين في جوّه (...) ومررت في سكك المدينة تغصّ بزحام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم.". **مقدمة ابن خلدون**، ٨٥/١-٨٦.
(١١٤) **ألف ليلة وليلة**، ١٣٣/١-١٣٤.
(١١٥) وممّا يشير إليه خروج النسوة إلى الأسواق وحرّية حركتهنّ في المجتمعات الإسلاميّة. دون أن يثير حفيظة الرجال. أنّ هنالك خلفية اجتماعيّة ومعيشيّة منفتحة على الآخر بحسّها المدينيّ، ومغموسة بالترف والبطر.
(١١٦) عن/فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص٤٤ –٤٥ .
(١١٧) م ن، ص٤٥.
(١١٨) ولا يخفى على القارئ الكريم أنّ رأي المعزّ متشكّل من الموروث الرجولي المتسلّط، الذي يرى في خروج المرأة عيبًا، وخرقًا للرّؤية الجمعية المتشدّدة التي انتشرت في بعض المجتمعات الإسلاميّة المترمّتة، وأنّ هذا الرّأي فيه الكثير من الإجحاف بحقّ المرأة، وبحقّ الرّجل الذي تعدّه هذه الرؤية ضعيف النفس، إن هو أعطى ابنته أو زوجته الحرّية، ووثق بها حين خروجها من منزلها. إضافة إلى احتمال أن يكون ما قد رُوي عن المعزّ مجرّد افتراء، أو هو من جملة الأكاذيب التي حُشِرت داخل التاريخ العربي، منذ بدايات تشكّله حتى زمننا الراهن.
(١١٩) فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ص٤٥.
(١٢٠) الملك الناصر: (محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي، ٦٨٤ . ٧٤١ هـ/ ١٢٨٥-١٣٤١م): هو أحد سلاطين المماليك،
تولّى عرش مصر ثلاث مرّات مختلفة ما بين عامي ١٢٩٣م و ١٣٤١م، وقد تطوّرت العمارة في عهده وازدهرت، وأشهر منجزاته القناة التي شقّها من الإسكندرية إلى النيل. عن/لاندو، روم: **الإسلام والعرب**، ص١٠٠.
(١٢١) **ألف ليلة وليلة**، ١١٥/٣.
(١٢٢) في مدينة القاهرة التي عاشت رفاهية وثراءً واسعًا في عهد المماليك بسبب "نجاحهم في جذب تجارة شرق حوض البحر المتوسط إلى القاهرة التي صارت مركزًا للنقل التجاريّ"، [فولكف، أولج، م س، ص٩٦]، يبدو طبيعيًا أن تنتشر الحوانيت التي تبيع الخمور، هذا إذا عرفنا ميل المماليك . تاريخيًا. على اللذائذ، والإمعان في اللهو وطلب المتعة، فقد "كان المماليك والأمراء في مقدمة صفوف الشعب إقبالاً على الفنون والملاهي ومتع الحياة ولذّاتها." يُنظر: البقيلي، محمد قنديل: **الطرب في العصر المملوكي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ٣٨٩، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، ص٤٤.
(١٢٣) **ألف ليلة وليلة**، ١١٤/٣.
(١٢٤) م ن، ١١٤/٣.
(١٢٥) م ن، ١٣١/١.
(١٢٦) م ن، ١٣٤/١.
(١٢٧) م ن، ١٣٤/١.
(١٢٨) م ن، ١٣٤/١.
(١٢٩) م ن، ١٣٧/١.
(١٣٠) لمزيد من الاطلاع على آراء هؤلاء الرّواة الإيديولوجية المعادية للمرأة، يُنظر: **ألف ليلة وليلة**، ٢٩٣،٢٩٩/٢. و: ١٧١/٣.
(١٣١) م ن، ١١٦/٣.
(١٣٢) م ن، ١١٦/٣.
(١٣٣) م ن، ١١٦/٣.
(١٣٤) وعبر تاريخها الطويل عانت القاهرة من اللصوص الكثر الذين انتشروا في أزقتها ومقابرها، ونظرًا لكثرة اللصوص في القاهرة المملوكيّة، والذين شكّلوا خطرًا على الحوانيت التجاريّة، وبخاصة في الليل، فقد انتشر في القاهرة "حرّاس موكّلون بحراسة الحوانيت يقومون بأعمال الدورية". يُنظر: فولكف، أولج: **القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة**، ترجمة أحمد صليحة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، سلسلة الألف كتاب (الثاني)، الكتاب الثاني عشر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص١٠٣.
(١٣٥) **ألف ليلة وليلة**، ١١٦/٣.

دورية إلكترونية. مُحكّمة. ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(١٣٦) هذا هو جزء من عنوان كتاب:
Miquel, André: *Sept contes des mille et une nuits, ou il n'ya pas de conte innocent*, Paris, Éditions Sindbad,1981.

(١٣٧) **ألف ليلة وليلة**، ١١٦/٣.

(١٣٨) م ن، ٣٨١/٤.

(١٣٩) م ن، ٣٨٢/٤.

(١٤٠) م ن، ٣٨٣/٤.

(١٤١) م ن، ٣٨٥/٤. وهكذا وردت إشارات الاستفهام في النصّ، فآثرت أن أتركها كما هي.

(١٤٢) تودوروف، تزفيتان: **مدخل إلى الأدب العجائبي**، ترجمة الصديق بوعلام، مراجعة د. محمد برّادة، دار شرقيات، القاهرة، الطبعة العربية الأولى، ١٩٩٤م، ص٤٩.

(١٤٣) ديرلاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافيّة**، ترجمة د. نبيلة ابراهيم، مراجعة د.عزّ الدين اسماعيل، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، نيسان/أبريل ١٩٧٣م، ص١٣١.

(١٤٤) ألف ليلة وليلة، ٢١٣/٣-٢١٤.

(١٤٥) وقد احتال هذا الرجل على طبّاخ دليلة المحتالة. وهي أشهر امرأة محتالة، هي وابنتها زينب النصّابة في جميع حكايات ألف ليلة وليلة. وعلى عبيدها وكلابها، وذلك بأن سقى الطباخ خمراً، ثم وضع البنج في الطعام الذي ستأكل منه العبيد والكلاب، ودليلة وابنتها زينب، حتى يتمكّن من سرقة جميع الثياب التي سرقتها دليلة من متاجر بغداد. لمزيد من الاطلاع يُنظر: ألف ليلة وليلة، ١٥٢/٤، ١٥٤.

(١٤٦) دير لاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ص٢١٧.

(١٤٧) **ألف ليلة وليلة**، ٤٤٦/٤.

(١٤٨) م ن، ٤٤٦/٤.

(١٤٩) م ن، ٤٤٦/٤.

(١٥٠) **ألف ليلة وليلة**، ٣٥٧/١.

(١٥١) وتذكر المصادر التاريخيّة أنّ القادمين إلى القاهرة كانوا يشاهدونها مقارنة بمدنهم، وكأنها منسوجة من عوالم خيالية، بل هي تصل في غرابة حياتها إلى حدّ يفوق التخيّل، ويُروى عن الفقيه الكاتب أبي القاسم البَرْجي قاضي العسكر بفاس، أنه قال عن القاهرة: "إنّ الذي يتخيّله الإنسان فإنّما يراه دون الصورة التي تخيّلها لاتّساع الخيال عن كل محسوس، إلاّ القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخيّل فيها". عن/ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ٨٦/١.

(١٥٢) **ألف ليلة وليلة**، ٣٧٤/٤.

(١٥٣) م ن، ٣٧٤/٤.

(١٥٤) لمزيد من الاطّلاع على محتويات هذا الكنز الأسطوري ينظر: **ألف ليلة وليلة**، ٣٩٥/٤.

(١٥٥) يقول، الرّاوي: "ثم إنّه فتحها [العلبة الذهبية] فرأى فيها خاتمًا من الذهب مكتوبًا عليه أسماء وطلاسم مثلاً دبيب النمل فدعك الخاتم وإذا بقائل يقول لبيك يا سيدي فاطلب تعط؟ هل تريد أن تعمّر بلدًا أو تخرّب مدينة، أو تقتل ملكًا أو تحفر نهرًا أو نحو ذلك؟ فمهما طلبته فإنّه قد صار بإذن الملك الجبّار خالق الليل والنهار". م ن، ٣٩٥/٤.

(١٥٦) بروب، فلاديمير: **مورفولوجيا الحكاية الخرافيّة**، ترجمة وتقديم أبو بكر أحمد باقادر وأحمد عبد الرحيم نصر، منشورات النادي الأدبي الثقافي جدّة، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص١٠٠. وهذه الأحداث التي أشار إليها فلاديمير بروب تتشكّل أيضًا في حكاية معروف الإسكافي، ولعلّ أهمها: ادعاء معروف الإسكافي بأنّه تاجر ثريّ، وأنّ حملته التجاريّة لم تصل بعد إلى المدينة [٣٨٨/٤]، ثمّ زواجه بابنة ملك اختيان الختن [٣٨٨/٤]، ثمّ شكّ وزير الملك بمعروف، ومحاولة التآمر عليه عند الملك [٣٨٩/٤]، ثمّ اعترافه أخيرًا أمام زوجته (ابنة الملك) بأنّه رجل إسكافي وهارب من زوجته الشريرة بمصر [٣٩١/٤]، ثم خروجه من المدينة حزينًا باكيًا على فراق زوجته بنت الملك [٣٩٣/٤].

(١٥٧) **ألف ليلة وليلة**، ٨٠/٤.

(١٥٨) صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧١م، ص١٥٣-١٥٤.

(١٥٩) وقبل أن يُقتَل جودر بفعل السمّ الذي دسّه له سالم وسليم، في مأدبة الطعام التي أقاماها له. **ألف ليلة وليلة**، ٩١/٤.

(١٦٠) م ن، ٨٩/٤.

(١٦١) م ن، ٩٠/٤.

(١٦٢) في حكاية "وردان الجزّار" يكتفي الراوي بتقديم الكنز إلى وردان دون الأداة السحريّة، يقول وردان: "وبعد ذلك نظرت في المحلّ [دهليز تحت الأرض] فوجدت فيه من الذّهب والفصوص واللؤلؤ ما لا يقدر على جمعه أحد من الملوك". [٨٤/٣]. ولماذا لم يقدّم الراوي الأداة السحريّة لوردان الجزّار؟ لأنّ الحكاية وقعت في زمن الحاكم بأمر الله*، وهو شخصية تاريخيّة حقيقيّة حكمت مصر، ولو أنّه قدّم هذه الأداة لجعل وردان الجزّار حاكماً على مصر بدلاً من الحاكم بأمر الله، وهذا سيجعل الحكاية تفتقد إلى مصداقيتها التاريخيّة، وبخاصة إذا عرفنا أنّ هذا الرّاوي يحاول أن يوهم قارئه بواقعية حكايته، وصحّة تاريخها، حين يقول: "وهذا السوق موجود إلى الآن ويُعرف بسوق وردان". [٨٥/٣]. *الحاكم بأمر الله: (منصور بن العزيز، ٣٧٥ .٤١١ هـ/٩٨٥ . ١٠٢١م): هو الخليفة الفاطميّ الذي حكم مصر من سنة ٩٩٦م إلى سنة ١٠٢١م. تردّت الدولة في عهده. وقد أمر بتدمير كنيسة القيامة في بيت المقدس عام ١٠٠٩م، وقتل بعض وزرائه بدون سبب، وزعم أنّ الله تجسّد فيه. كان متطرفاً في التعصب وعدم السماح مع غير المسلمين. عن/روم، لاندو: **الإسلام والعرب**، ص٩٥، ١١١.

(١٦٣) صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، ص١٣٩.

(١٦٤) ولا يرصد الرّواة الكنوز المصرية للأبطال المصريين فحسب، بل يرصدون كنوزًا أخرى بأسماء هؤلاء الأبطال، كما في حكاية "جودر ابن التاجر عمر"، إذ نجد أنّ كنز الكهين "الشمردل" في مدينة فاس المغربية مرصود باسم "جودر"، مما جعل التّاجر المغربي يأتي مصر ليطلب من جودر أن يفتحه له [٦٣/٤]، وكذلك نجد أنّ الكنز البعيد في القرية الأسطورية التي يصل إليها معروف الإسكاف -لا يحدّد الرّاوي اسمًا لها- هو مرصود باسم معروف الإسكافي الهارب من فقره وزوجته في مصر. [٣٩٦/٤].

(١٦٥) **ألف ليلة وليلة**، ٨٥/٣.

(١٦٦) قارون: وزير فِرْعون الذي رفض أن يؤمن بما جاء به موسى عليه السلام، وقد طغى وتجبّر بسبب ثروته الهائلة التي كان يزعم أنّه حصل عليها بسبب علمه وبراعته في الكيمياء. وقد خسف الله به وبداره الأرض. ويرتبط قارون ببحيرة في مصر باسم بِرْكة قارون في الفيّوم. ويقول المقريزي في كتاب "الخُطط" إنّ كافوراً شيَّد داراً بجانبها فطرده منها الجن. يونس، د.عبد الحميد: **معجم الفولكور**، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣م، ص١٧٥.

(١٦٧) **ألف ليلة وليلة**، ٦٢/٤.

(١٦٨) م ن، ٦٢/٤.

(١٦٩) دير لاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافية**، ص١٧٨.

(١٧٠) لمزيد من الاطلاع يُنظر: صالح، أحمد رشدي: **الأدب الشعبي**، من ص١٢٨ إلى ص١٣١.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449

(١٧١) يزعم ديزموند ستيورات العاشق للقاهرة الجميلة أنّه لا تزال بعض النساء الأجنبيات اللواتي عشقن الطبّ الفرعوني، تمارس بعض فنون السحر في قصور القاهرة الفارهة، حتى وقت متأخر، ويروي القصّة الآتية: "في أحد القصور المطلّة على النهر [نهر النيل] كان يقيم باشا مصري متزوّج من سيّدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطبّ الفرعوني القديم أن خصصّت له ثلاثة معامل. وفي إحدى المناسبات عارضها صديق ثري قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشيء ما ولو كان شرًا فتحدّاها أن تُظهر قدراتها، فحبست عنكبوتًا سامًّا في آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضًا من شعره وأظافره. ولم يحدث شيء، ثمّ اضطرّت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هي هناك وصلتها برقيّة تفيد أنّ صديقها هذا في المستشفى على وشك الموت . فيما يبدو . بالسرطان فاتّصلت من زيوريخ بالتلفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أنّ العنكبوت الذي كان على وشك الموت جوعًا داخل البرطمان قد فرض طريقًا عميقًا داخل التمثال، ربما سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدّامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال في ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فما إن تمّت العملية حتى شفي صديقها الضحيّة في الحال". **القاهرة**، ص١٦١ . ١٦٢.

(١٧٢) والآيات الكريمة التي تشير إلى مصر هي: آية (٦١) سورة البقرة، آية (٨٧) سورة يونس، آية (٩٩) سورة يوسف، آية (٥١) سورة الزخرف.

(١٧٣) **مقدمة ابن خلدون**، ٨٧٣/٢ . ٨٧٤.

(١٧٤) عن/ الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، ١٤١/٥. ولمزيد من الاطّلاع على ما قيل في هجاء مصر، يُنظر هذا المصدر ١٤١/٥- ١٤٢.

دورية إلكترونية .مُحكّمة .ربع سنوية
ISSN: 2090 – 0449